جدلية الحرب والسلام بين كانت وهيجل

د. ميثم محمد يسر / جامعة واسط / كلية الآداب / قسم الفلسفة

تمهيد

- إنَ الآراء التي طرحت حول موضوع الحرب كثيرة، وفي ذلك انقسم الفلاسفة منذ القدم الى فريقين :فريق يؤمن بالسلام ، ويراه الحالة الطبيعية بين المجتمعات ، والدول . ويرى الحرب حالة استثنائية يمكن تلافيها بطرق مختلفة، وآخر يرى أنّ الحرب حالة طبيعية وأنّه لايمكن قيام سلام دائم. ان اسباب قيام الحرب موجودة سواء أكانت عند الإنسان ككائن فرد أم بين المجتمعات والدول؛ وبالتالي لايمكن قيام سلام دائم ، فالحرب ظاهرة إنسانية اصطحبها الإنسان معه إلى المدينة حينما كان في حالة الطبيعة (١) فالدولة لدى هذا الفريق مثل كل إنسان لاتدافع سوى عن مصلحتها الخاصة ، ولايهمها مصير الدول الأخرى أو مصالح تلك الدول إذْ إنّ الصراع بين الدول حالة طبيعية هي أشبه مايكون بحالة الصراع بين الأفراد في حالة الطبيعة في المفهوم الهوبزي (٢) . وهذا النوع من الصراع حالة حتمية لتضارب المصالح؛ ولأنّه ليس هناك قانوناً أو سلطة تتحكم بعلاقة الدول مع بعضها ولو كانت هناك اتفاقيات فمن الممكن إلغائها من طرف من الأطراف التي اتفقت فيما بينها فلا يوجد شرط جزائي في ذلك إن وجد فلا وجود لضامن له في حالة إخلال أحد ألاطراف لانتفاء وجود سلطة تحاسب على ذلك ، ويكون ذلك مبني على مايسميه هذا الاتفاق من ضرر أو نفع للأطراف المتفقة وسيكون الطرف ألاكثر قوة فيه هو القادر على خرقه في حالة وجود مايترتب على ذلك الخرق من منافع، أو امتيازات في جوانب أخرى؛ لأنّ مايحكم العلاقات السياسية والاقتصادية هي المنفعة التي تعود على هذا الطرف أو ذاك ولأوجود لرادع أخلاقي، وهكذا يصبح النزاع بين الدول قائم لامحالة. وهذه هي رؤيا الفريق الثاني الذي يرى أنّ الحرب بين الدول قامت ، وهي قائمة، وستقوم دائما، ولايمكن قيام سلام دائم، والسلام الذي نراه أحيانا يعم لفترة من الزمن وهو حالة هدنة (استراحة محارب).

تاريخياً نلاحظ أنّه عند قيام الدولة وتحوّل الإنسان إلى كائن اجتماعي كانت هناك حروب، بل إنّ الحرب كانت فضيلة في أغلب المجتمعات فالفارس المحارب الشجاع المستعد دائماً للقتال والقتل يعدّ دائماً هو الأفضل ويوضع في أعلى طبقات المجتمع ، ونادرة هي المجتمعات التي تربّي أبنائها على السلام، والمحبة ، والتسامح، ربّما نجد هذا في بعض المجتمعات الشرقية إذْ مفهوم الحرب والصراع سائد منذ فجر التاريخ(٣).

إنّ صراع الإمبراطوريات في الشرق القديم دليل على أنّ الحرب قديمة ، وليست استثنائية، وهي حالة طبيعية، وإنّ قيام الدول وتوسعها أتى عن طريق الحروب. وفي بلاد الرافدين مثلا نجد أنّ الدولة

آلاشورية هي من أكثر الإمبراطوريات التي أسست عقيدتها على الحروب، فوجودها قائم على أساس عسكري(٤) ؛ ولذلك نلاحظ سياسة العنف، والبطش، والقتل بشكل تعسفي، وغير إنساني وكانت واضحة على مرّ تاريخها، فأتسم تاريخها بالدموية، وسحق الشعوب التي أصبحت تحت سيطرتها(٥) ولعلّ جغرافيا هذه الدولة لها تاثير على عقيدتها فهي متكونة من سكان الجبال الأشداء، ومن حياة قاسية، وتضاريس قاسية، أنشأت شخصية عنيفة، وهذه الشخصية هي أساس تلك الدولة وبالتالي لم تتسم سمات تلك الدولة بمفاهيم إنسانية كثيرة مثل: المحبة، والتسامح، والسلام، وأصبحت عقيدة الحرب، والقتل هي الأساس الذي يستند عليه في بناء حياتهم ودولتهم، لقد كان لعقيدة الحرب أثر كبير في بناء الإمبراطوريات في الشرق على الرغم من كثرة الديانات السمأوية ووجود آلالهة تبدو مقيضاً لعقيدة الحرب مثل آلهة الحب، والخير، والجمال، وغيرها . لكن ذلك لم يحد من ظاهرة الحرب، وفي أحيان أخرى كانت تلك الديانات تؤكد على استخدام القوة والقسوة.وفي الجزيرة العربية قبل الإسلام قد تكون قسوة البيئة(الجغرافيا) وجدبها لها تاثير كبير على انغماس العربي في الحرب حتى أصبحت تمثل حياته كلها. وقد كان للشعر الذي أرّخ لتاريخ العرب، وثقافتهم دور كبير في ترسيخ مفاهيم الحرب، والشجاعة، والاقدام. وفي استقراء لتاريخها نجد أنهّا كانت مسرحا للقتال بين القبائل، وقد أرّخ الشعر الذي هو ديوان العرب لأغلب الوقائع والحروب التي دارت بين القبائل حتى كادت الحروب أنْ تكون حالة طبيعية يعيشها العربي والسلم حالة استثنائية، ففيه يستعد العربي لحرب أخرى قادمة، إنّ مقياس شرف الفرد ومكانته الاجتماعية كانت تتحدد بقدر إقدامه على الحرب، وعدم الخوف منها، وقربه على العدو، وعدم الفرار من المعركة. فالحرب وممارستها والتفكير بها، تمثل تقريبا مجمل حياة العربي أو كل تاريخه(٦).

وإذا اعتبرنا اليونان تمثل بداية حضارة الغرب، ومنطلقها، كلتّها قد شهدت حروبا مستمرة فرغم الاتفاقيات والمعاهدات التي كانت تعقد بين المدن المتحاربة ولكن هذه الاتفاقات كانت تخرق دائما، وتقوم الحرب بين الخصوم من الملوك والأمراء خصوصاً إذا ماأحسّ هؤلاء بانّ هناك فرصة للسيطرة على مدينة، أو على جزيرة قريبة منهم فيتذرع هؤلاء بحجج شتى لخرق هذه الاتفاقيات، وحروب طروادة (٧) أحد الأمثلة على ذلك وبوجود صراعات داخلية بين المدن، الجزر اليونانية كانت هناك أيضا حروب بين اليونان وبلدان اخرى حيث كان اليونانيون يدعون سكان البلدان الأخرى بالبرابرة (٨) ومن هذا يتضح أنّ اليونانيين ونتيجة لهذه الحروب المستمرة في الداخل والخارج، رأوا أنّ الحرب حالة طبيعية، وأنّها جزء من نظام الطبيعة، وبالتالي لايمكن القول إنّ ثقافة الحروب كانت موجودة عند الشرقيين فقط، فالحرب ظاهرة إنسانية حيثما تكون هناك مجتمعات بشرية تظهر هناك حروب، ومنازعات شتى، وقتل الإنسان ، وعدم احترام الحياة موجود في كل أجزاء الارض، وعلى مر الأزمان. فهل الحرب غريزة جلبها الإنسان مع الكثير من الغرائز الأخرى التي بقيت مصاحبة له حيث

كان في حالة الطبيعة؟ أي: قبل أنْ يتحول الى حالة الوعي الإنساني، وحالة التمدن التي نعرفها آلانِ؟ حيث رأى الفلاسفة مثل كانت، وهيغل، وقبلهم أرسطو أنّ الإنسان كلما ازداد وعيا ازداد شعوراً بالإنسانية وازداد احتراما لنفسه وللآخر كمخلوق لايشبه المخلوقات الأخرى الموجودة في الطبيعة، فالطبيعة بكل مافيها من حيوانات ونباتات وأشياء أخرى هي عقل متحجّر كما يقول هيغل (٩) ولكننا نرى العكس أنّ الإنسان كلما ازداد تمدّنا وتطوراً وتكنولوجياً وعلمياً ازدادت عدوانيته، وأراد السيطرة ،والحرب بل أنّه كلما ازداد عمقاً في الوعي، وعقلانية أصبح أكثر عدوانية، والدليل على ذلك أنّ المؤرخين لتاريخ الفكر يرون أنّ بداية عملية التفلسف كان في اليونان ويكاد يجمع على هذا الراي جلّ مؤرخي الفلسفة ولكن هل اثرّ هذا التقدم في الوعي على الإنسان؟ أي: جعلهُ اكثر إنسانية وابعده عن الحروب، والقتل ؟ لقد كان من المفترض ان يحدث ذلك حسب رؤية الفلاسفة الذين تقدم ذكرهم(١٠) ولكن الذي حدث هو العكس تماماً فقد ازدادت روح الحرب ضراوة، وازداد تمجيد العظماء الذين يسفكون الدماء أولئك القساة الصلبين واعتبرت الإنسانية ميوعة من العيب أنْ يتصف بها الرجال، وهذا كان واقعاً اجتماعياً، وكان هناك احترام، وتبجيل لما يسمى بالتجربة الإسبارطية الحربية بفصل الأمهات عن أبنائهم، ووضعهم على قمم الجبال حتى يعرفون إنْ كان جسد هذا الرضيع قويا يمكن أنْ يخلق منه مقاتلاً شجاعاً جسوراً قادراً على القتل فاذا لم يكن قوياً فالأحرى به أنْ يموت، وبالفعل سوف يموت هذا الطفل الذي لايستطيع أنْ يقأوم الظروف الصعبة على قمم الجبال، وبعد هذا الامتحان يتدرج هذا الطفل فيتعلم فنون القتال، والقسوة وسواء أكان هذا الكلام حقيقة أم فيه نوع من المغالاة الإسطورية ولكنه بالفعل فيه جزء كبير من الحقيقة لقد كان هذا الواقع معكوساً على الفكر والدليل على ذلك أنّ طروحات الفلسفة تاثرت أيما تاثر بهذا الواقع إذْ راى هيرقليطس أنّ الحرب هي أب أو ملك لكل الأشياء (١١)؛ ولأن طبيعة العالم مركبة من أضداد إذًا لابد من التنازع وبالتالي فإنّ الأشياء تظهر وتختفي عن طريق هذا التنازع والصراع (١٢).

وفي الأدبيات الإفلاطونية نرى أنّ افلاطون في الجمهورية (١٣) قد اعتبر طبقة الجند التي وظيفتها الأساسية الحرب طبقة أساسية من طبقات المجتمع بل لايمكن قيام دولة بدون هذه الطبقة، والنفس الغضبية التي تكون مسيطرة في طبقة الجند تاتي مباشرة بعد النفس العاقلة ورغم أنّ افلاطون قد رفض صعود أفراد من طبقة دنيا الى طبقة عليا، فمثلا لايمكن الانتقال من طبقة العمال، والفلاحين، والعبيد الى طبقة الجند أو الى طبقة الفلاسفة الحكام؛ لأنَ التركيبة الفلسفية وامكانياته المعرفية، والامكانات الأخرى هي التي أفرزتهم، ووضعتهم في هذه الطبقة، وانتقالهم الى طبقة أعلى سوف يحدث خللاً في النظام الاجتماعي، والسياسي في جمهوريته المثلى إلاّ أنّه راى انه يمكن انتقال فرد من طبقة الجند الى طبقة الحاكمين أي: يمكن ان يحكم الدولة فرد من طبقة الجيش، وهذا دليل على أنّ افلاطون كان يرى في طبقة الجند إحدى الطبقات اللامعة أي: إنّه كان يعطي تقديراً خاصاً لهذه

الطبقة، ورغم أنّ افلاطون كان يؤمن بمثل عليا هي الحق، والخير، والجمال إلا أنّه لم يرفض الحرب بل عدها حالة طبيعية قائمة ومشروعة (١٤).

أمّا الديانة اليونانية فلم تكن تخلو من آلهة الحرب بل كانت آلهة اليونان من نسل حربي، وقد وصلوا الى السلطة عن طريق الحرب التي دارت بينهم، وبين التيتان (TITANS) وهم نوع من الجبابرة، والمردة الذين حكموا العالم قبل آلهة الأولمب، وقد كان أبرز آلهة الحرب عند الإغريق أحد الشخصيات الرئيسية ، والهامه أمّا آلهة السلام(آيرن) فقد كانت آلهة ثانوية مساعدة تراقب وتشاهد العظام فقط(١٥).

أمّا على مستوى الديانات السمأوية الكبرى الثلاث اليهودية، والمسيحية والإسلام فقد كانت اليهودية دين حرب بامتياز، ولعلّ هذا راجع الى طبيعة تكوينهم كشعب، فالشعب اليهودي ينسب نفسه من أصل واحد فهم إذاً قبيلة واحدة وهذه القبيلة ترفض الاندماج مع باقي الأقوام لتكوين مجتمع مدني؛ لذلك كان لابد من أنْ يكون هناك عداء مع الأقوام الأخرى المجأورة لهم فلقد تميز تاريخ اليهود، ومنذ ظهورهم بصراع دام مع جيرانهم فالتاريخ يذكرنا بأنّ هناك سبي لليهود قام به ملك بابل نبوخذنصر، وحدث ذلك مرتين (١٦) وهناك صراعات قامت بينهم وبين ألاقوام الموجودة معهم في فلسطين، وبلاد الشام عموما، وفي بلاد النيل كانوا يعاملون معاملة العبيد مّما حدا بموسى عليه السلام أنْ ينتفض لأجلهم ضد فرعون، ويسير بهم الى بلادهم مرة أخرى (١٧) لذلك كانت جلّ حياتهم موسومة بالصراع والحرب، العداء وكذلك كانت هناك قسوة في تعاملهم مع بعضهم ومع الأخر وبقي المجتمع اليهودي مجتمعاً منغلقاً على نفسه كذلك كانت تعاليمهم الدينية شديدة قاسية ليس فيها تسامح بل فيها عدائية كبيرة، وخاصة مع العقائد، والديانات الأخرى ولقد عبّر القران الكريم عن ذلك حين قال "ولتجدنّ اشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ...." (١٨) امام هذه القسوة والعدائية وعدم الانصهار في المجتمعات الأخرى كان لابد أنْ يتشتت اليهود في أصقاع الأرض كافة ليكونّوا داخل هذه المجتمعات بؤراً صغيرة منغلقة تستعدي تلك المجتمعات التي هي في داخلها يتضح هذا في الأعمال الأدبية الكبيرة للأدباء الأوربيين (١٩) التي تظهر اليهودي الجشع الذي ليس له أخلاق، والذي يسعى الى المال بشتى الطرق، والذي ينتظر الفرصة المناسبة؛ لينقض على خصمه بخسّة، وجبن (٢٠).

وقد بقي هذا النفس، أي: نفس استعداء اليهود عند الأوربيين موجوداً وما حدث في العهد النازي من قتل، وتنكيل باليهود دليل على ذلك، وبوجه عام كانت العقيدة اليهودية هي عقيدة حرب، واستعداء للآخر، وعدم التحأور معه، وعدم التسامح وهي نقيض للسلام لذلك كان من الطبيعي أنْ يظهر نقيض من هذه العقيدة من داخلها ونقصد بذلك المسيحية .

السيد المسيح عليه السلام الذي كان جوهر دعوته السلام "المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام" (٢١) نادى السيد المسيح أنّ جميع البشر أخوة ورأى أنّ الحرية يجب أنْ تكون لجميع البشر

ودعا الى مجتمع بشري واحد تسوده المحبة، لاتفرق بينهم، لاجنس، ولا لون، ولادم، ولالغة ..الخ. ونادى بولس الرسول في المسيحيين "سالموا جميع البشر، لأنّ المحبة هي تكميل الناموس، والبشر اسرة، واحدة فقد عمّدنا جميعا روحاً واحدة لنؤلف جميعا جسداً واحداً ينتظم فيه اليونانيون، والعبيد والأحرار" (٢٢).

ولكن المسيحية فيما بعد حينما تحولت من رسالة محبة وسلام الى دولة، أو دول أي: الى سياسة دنيوية بالمصطلح الديني تحولت هذه الرسالة من رسالة محبة وسلام، وأخوة الى رسالة حرب، وبأسم الدين حيث كانت الحرب التي يقومون بها حرباً مقدّسة كما هي الحروب الصليبية ضد بلاد العرب والمسلمين في العصور الوسطى (٢٣) فالمسيح الذي كان داعية سلام ومحبة تقام باسمه الحرب، وهكذا هي الحرب التي قامت في ألاندلس ضد المسلمين التي قتل فيها المسلمين بشكل مخيف وبشع وبأسم المسيح بل إنّ المسيحيين فيما بينهم انقسموا الى طوائف وملل وقامت بين دول أوربا، وأماراتها حروب طاحنة باسم الدين، وباسم المسيح وهي تماماً بعكس ماراده المسيح إذ اتى ليزرع السلام والمحبة في قلوب كل المؤمنين به. ولاأدلّ عل ذلك من ترانيمه في ألاناجيل، ومقولاته عن السلام التي تمثل جوهر رسالته (٢٤).

أمّا موقف الاسلام من الحرب فيبدوا أنّ الإسلام هو التركيب، أو مركبّ النقيضين بالمفهوم الهيغلي ونقصد بالنقيضين اليهودية والمسيحية فدعوة الإسلام تمتص في جوفها دعوة الحرب الدائمة ضد الأعداء التي جاء بها اليهود وتمتص في جوفها كذلك دعوة السلام، والمحبة التي جاء بها السيد المسيح لتمتزج في موقف متوازن عن الحرب، والسلام فنظرة فاحصة الى آيات القران الكريم نجد فيها دعوة الى الحرب والقتال واضحة فمثلا قوله تعالى" وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة" (٢٥) وقوله أيضا" قاتلوا المشركين كافة" وقوله" (٢٦) "إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ " (٢٧) ولكن متى يقاتل المسلم ؟ أي: متى يلجأ الى الحرب، إنّه يلجأ إليها مضطراً وفي حالات معينة حينما تهاجم بلاد المسلمين حين يعتدى على المسلمين، وحين يكون هناك خطر على الدين، أو عى الأرض والعرض، ولكن الاسلام قبل ذلك يدعو الى السلام، وأنّ اسمه أي: اسم الدين مشتق من السلام، وأحد أسماء الله تعالى هو: السلام وآيات كثيرة تدعو الى السلام مثل قوله تعالى" يايها الذين امنوا ادخلوا في السلم كافة " (٢٨) وقوله "وان جنحوا للسلم فاجنح لها" (٢٩) فجانب السلام في الإسلام مواز أو متواز مع حال الحرب ولكل وضعه أو ظروفه، وهناك ثوابت، أو قوانين ينطلق منها الإسلام في حالتي الحرب والسلام، والوضع الطبيعي عند المسلمين هو السلام، المحبة، الاخوة، وخاصة مع أبناء الديانات السماوية الأخرى وهو أقرب الى المسيحية منها الى اليهودية.

ونستدل من ذلك ان المسيحية كدين سلام ومحبة اقرب الى الإسلام من دين اليهودية دين القوة والشدة والحرب، ولكن الإسلام لم يرفض الحرب بل جعلها مقدسة، وفريضة كما هي فريضة الجهاد

في سبيل الله ولكن مرة أخرى نقول إنّ الحرب في الإسلام هي حالة استثنائية وليست حالة طبيعية من هذا نجد أنّ الإسلام قد وازن بين الفكرتين الحرب والسلام ليرتقي الى فكرة ارقى.

وفي العصر الحديث كان هناك فلاسفة كثيرون يرون مايراه الفلاسفة اليونانيون بأنّ الحرب ظاهرة طبيعية وهي شيء لابد منه بل ضرورة فهذا *ميكافيلي* الفيلسوف الايطالي الشهير راى أنّ الحرب ضرورة ليس فقط لبقاء الدولة بل أيضاً لقوة المواطنين وأنّ الملك، أو الأمير إذا أراد أنْ يستمر على سدّة الحكم لابد أنْ يكون جلّ تفكيره في الحرب وليس في السلام(٣٠).

وراى *توماس هوبز* أنّ مجتمع الطبيعة قبل الوصول الى المجتمع المدني هو في حالة حرب دائمة حرب الكل ضد الكل؛ لأنّ الإنسان ذئب لأخيه الإنسان وأنّ مفهوم المحبة والسلام مفقود في مجتمع الطبيعة فالإنسان مجبول بطبيعته على الحرب والتعدّي على حقوق الاخرين وارواحهم (٣١).

وبالمقابل كان هناك فلاسفة دعو الى السلام، وسلام دائم، وخاصة في العصر الحديث وبعد اكتشاف البارود وقوته التدميرية الكبيرة أصبحت الحرب أكثر دماراً وقتلا، وفتكا بالبشر، والمدن والحياة اجمعها، وأخذ المفكرون في العصر الحديث يفكرون أكثر في السلام ويعتبرونه قضية جوهرية وخاصة بعد نشوء دول حديثة، ومحاولاتها التوسع نحو جيرانها وأدّى هذا الى نشوء حروب طاحنة في العصر الحديث وصولاً الى الحربين الكونيتين في القرن العشرين فكان لابد من أنْ يولي الفلاسفة والمفكرون اهتماماً بالحرب ويبحثون عن اسبابها وطرق تلافيها وأنْ يبرزوا قيمة الإنسان وقيمة الحياة التي تنتهي بسبب الحرب وأنْ يوسعوا من ثقافة السلام لتصبح في وعي الإنسان بشكل عام، وأنْ يبرزوا مواطن الخلل، والضعف في ثقافة العنف الذي يؤدي الى الاستبداد وهدر كرامة الإنسان وتحجيمه وخنق حريته وسلب ارادته وبالتالي الغاء وعيه، وبالتالي تحويله الى مخلوق يشبه الوحش الكاسر تسلب منه لأنّ الحرب تسلب منه كل الصفات الإنسانية وبما أنّ الفلسفة وظيفتها المثلى هي الارتقاء بوعي الإنسان وسمو فكره ونبل اخلاقه فإنّ الكثير من الفلاسفة اعتبروا الحرب حالة استجلبها الإنسان من الطبيعة، أي: حينما كان الإنسان في مرحلة من الوعي الدنيا أي: أقرب الى الحيوانية. وأنّ انتقاله، أو تقدّمه في حالة الوعي يفرض عليه أنْ يحترم الحياة أي: يحترم الإنسانية وأنّ الحرب هي فكرة، أو هي حالة يجب أنْ تكون آخر مايفكر به الإنسان؛ لانها ضد العقل، والمنطق، والإنسانية. بشكل عام فهذا(*ارازموس*) * المفكر والفيلسوف الهولندي الإنساني يرى أنّ الحرب انتحار جماعي وكتب عام ١٥١٠ كتابا اسمه" دفاعا عن العقل والدين والإنسانية ضد الحرب" دعا فيه كل إنسان الى بذل اقصى مايستطيع من جهود لوضع حد للحروب، لأنّ الحروب في نظره تعارض الهدف الذي من أجله خلق الإنسان؛ لأنّ الإنسان. في رأيه لم يخلق من أجل الدمار والهدم وإنما من أجل المحبة والصداقة وخدمة غيره من البشر(٣٢).

إنّ السلام يجب أن يكون ثقافة، وليست ردّة فعل ضد الحرب أي: يجب أنْ يكون في وعي الإنسان وضميره، ويجب أنْ تنشر هذه الثقافة في عقول، ووجدان جميع البشر فالحرب ليس بالضرورة أنْ تكون ضد عدوان خارجي، فهناك الحروب الداخلية بين أبناء الوطن الواحد، وهي حرب أشدّ ضرأوة وهمجية، وخسارة من الحروب الخارجية، وقد تكون هذه الحروب دينية، أو قومية، أو اثنية، أو مناطقية .

هناك دعوات قديمة لإقامة أحلاف كان الغرض منها الاستعداد للحرب ضد عدو داهم كما كان مشروع الاب "*دي سان بيير*" (١٦٥٦- ١٧٤٣م) ظهر هذا المشروع سنة ١٧١٥ كان القصد منه إنشاء مشروع للدفاع عن أوربا ضد الإسلام المتمثل بالدولة العثمانية التي احتلت القسطنطينية وبلدان أوربية أخرى، وكانت جيوشها على أبواب فيينا ومن أهداف هذا الحلف أنْ يضمن سلامة أرض هذه الدول الأوربية فهو في جوهره لم يدع الى سلام دائم بين كل الدول بل الى سلام بين الدول الأوربية، المسيحية ضد الإسلام الذي كان يمثل عند الأوربيين الحرب، والقوة الغاشمة، ويلاحظ على هذا المشروع أنّه رؤية دينية للسلام، وليست رؤية إنسانية (٣٣) ظهر هذا المشروع بطبعة مع بحث لروسو اسمه(حكم عل السلام الدائم) سنة ١٨٥٦ حيث كانت رؤية روسو لموضوع السلام أكثر إنسانية اذلم ينطلق من منطلق ديني متعصب، بل من رؤية تنويرية عقلية إنسانية (٣٤)، وكانت هناك مشاريع أخرى ضد الحرب وتطرح رؤية للسلام كل هذه المشاريع توضح رؤية الفلاسفة في إن الحرب ضد الحياة وضد العقل وضد الإنسانية هي حالة طارئة يجب تجأوزها وتلافيها .

وقد استمرت جهود الفلاسفة والمفكرين في البحث عن صيغة للسلام تجنب الإنسانية الحرب وتنبه السياسيين ورجال الدولة من خطورة الإقدام على الحرب وتبين ان مستقبل البشرية سيكون مهدداً اذا أقدم رجال الدولة على قرار الحرب إنّ الحرب تهدم البنية النفسية والاجتماعية للفرد، والمجتمع يقول "*كانت*" في كتابه (مشروع للسلام الدائم) "الحرب مشينة، لأنّها تربّي الأشرار قبل أنْ تقضي على الناس"(٣٥) وهي حكمة يونانية استقدمها "*كانت*" في كتابه ليبيّن خطورة الحرب على البنية النفسية لأفراد المجتمع، وتذكرهم بنداء العقل الذي هو نداء الإنسان المتمّدن الشاعر بإنسانيته، كذلك تذكر العلماء الذين بدأوا اتجاههم نحو اختراع الأسلحة الفتاكة التي يمكن أنْ تفني الجنس البشري بل تفني ماهو حي في الطبيعة وتهدم كل مقومات الحياة، لقد واصل هؤلاء الفلاسفة التنبيه من خطر الحرب، وأنّها لعبة مجنونة يمكن أنْ تفتك بصاحبها، ولقد اتعظ الكثير من العلماء، وانتبهوا الى ماآلت إليه نتائج مخترعاتهم من ضرر على البشرية، وعلى الحضارة، ونوبل خير مثال على ذلك حيث لازالت هناك جائزة عالمية من الاكاديمية السويدية للعلوم تسمى جائزة نوبل للسلام، تعطى لأشهر شخصية ساهمت في إرساء السلام، واطفاء نار الحرب.

كانت، موقفه من الحرب والسلام

آمن كانت مثل روسو بضرورة قيام عقد اجتماعي، يحمي الناس من خطر الحروب التي يمكن أنْ تقوم بأي لحظة عندما يكون الإنسان في المرحلة الطبيعية من الوعي ، يتفق كانت مع هوبز بأنّ حالة الطبيعية تكون فوضى، وحرب؛ لأنّ الإنسان في حالة الطبيعة تسيطر عليه غرائزه، ويتجه نحو المنفعة، وتحركه حاجاته، الإنسان هنا موجود يتهرّب من المجتمع .

فهو نفعي، وطامع، ومشاكس، ومنافس(٣٦) وهو بالنتيجة يميل إلى مقاومة آلاخرين، ويتوقع أنْ يقاومه آلاخرون، وهاتان المقاومتان تضعف تواصله الاجتماعي ان هذه الاستعدادات الفطرية لدى الإنسان تنفعل في عالم الطبيعة لكن هذه العملية تمر بمخاض عسير. فالطبيعة ميدان الاختلاط بين الناس ويتابع كل فرد الأهداف الخاصة به، وينتهي التضارب بين المصالح، والتنافس النفعي الى خلق حالة العداء والحرب (٣٧) ويرى كانت أنّ هناك نزعة أخرى لدى الإنسان غير النزعة الطبيعية الغريزية فالإنسان بالرغم من ميله الطبيعي الغريزي موجود عاقل، وعقله قوة تدفعه الى التفكير فيما وراء الطبيعة.

إنّ الإنسان كما يرى كانت موجود مبدع، وخلاق يستخدم عقله في إبداعه وانتاجه أنّ العقل موهبه تنطلق بالإنسان الى مافوق حيوانيته، إنّ العقل، والغريزة إذا هما القوتان اللتان تتحكمان بالإنسان ولكن مع تقدم الإنسان وتقدم وعيه، يبدا العقل بالسيطرة على غرائزه، وميوله الطبيعية إذا هناك صراع داخل الإنسان بين العقل والغريزة ينعكس ذلك على وجوده بالمجتمع، أو مايسميه كانت" المخالطة الاجتماعية" (٣٨) فإذا مابدا العقل يسيطر ينتهي مايسميه كانت " الحالة البربرية لدى الإنسان" ويتجه نحو الثقافة التي تعبر عن الجدارة الاجتماعية لدى الإنسان ويندفع الإنسان في عملية التنوير والتثقيف المستمرة الى الانتقال من حالة الطبيعة وهذا الانتقال لم يات بسبب حاجة الإنسان الى الأمن، أو بسبب حاجة مادية كما هو لدى هوبز، ولوك وحتى روسو بل بسبب تاثير العقل، وتطور وعي الإنسان الذهني والعقلي حيث يثبت العقل أنّ الإنسان لايمكن أنْ يعيش بمفرده إذ الإنسان في خلال المخالطة بالمجتمع لايتغلب على الخوف من الوحدة فحسب، وإنّما يلبّي حاجاته الإنسانية والفكرية أيضاً (٣٩) إنّ حضور الأخلاق في المجتمع يدل أنّ الثقافة أزاحت البربرية، وفتحت المجال أمام الأخلاق أي إنّ الإنسان قد وصل الى مرحلة من الوعي والتطور، فالاخلاق مرتبطة بالعقل عند كانت فكلما تطور عقل الإنسان ادرك القانون الاخلاقي.

إنّ تحقيق النظام الاجتماعي "العقد الاجتماعي" اتى نتيجة الجدل والصراع بين الطبيعة والعقل؛ لأنّ الطبيعة تجبرنا على التحرك نحو اللانظام في نظام اجتماعي"عقد" وبالتالي يعمل العقل على ترويض هذه الحرية الوحشية، ويسير نحو تكوين نظام اجتماعي، حيث يحاول العقل أنْ يثبت أنّ الاجتماع هو غاية الطبيعة، والتعايش السلمي بين فئات المجتمع هو الهدف؛ لأنّ الاجتماع هذا يضمن الحرية

للجميع مع وجود الاختلافات بين البشر حيث يحاول العقل أنْ ينسّق، أو يضمن حريات الآخرين مع عدم الحاق الضرر بحريتك ذلك من خلال رسمه حدود الحرية والدفاع عنها (٤٠).

يرى كانت أنّ أعظم وظيفة أوكلتها الطبيعة الى الإنسان هي تاسيس المجتمع الذي تدور فيه الحرية على مدار القانون يقول كانت" تكشف بدايات التاريخ أنّ العقل يقود الإنسان للتخلص من الحياة الحيوانية العنيفة نحو الحياة الإنسانية فالإنسان من خلال توجيهات العقل يقطع وادي الغريزة الذي تزوده به الطبيعة، ويضع قدمه في ميدان الحرية الذي يحميه العقل، ويدافع عنه وقبل صحوة العقل لم تكن هناك تعاليم، وموانع وانبرى العقل منذ ذلك الحين الذي اقتحم به الميدان للتصدي للحيوانية بكل قوة (٤١).

الإنسان والحرب من وجهة نظر كانت

ينطلق كانت من مفهومين جوهريين لتوضيح علاقة الإنسان بالحرب هما: مفهوما الأخلاق والحرية؛ ولذلك نرى كانت – مثلا- يرفض استخدام المرتزقة في الحرب؛ لاعتبارات إنسانية، وليست لاعتبارات نفعية، أو سياسية، فالإنسان ليس آلة كي يشترى، أو يتاجر به من مكان لآخر ، إنّ الإنسان الذي يستخدم كمرتزق في الحرب، إنّما يضع إنسانيته في سوق البيع، وبما أنّه موجود حرّ، وغاية في ذاته، فلا يحق أنْ يتعامل مع نفسه بهذه الطريقة (٤٢) ، يرى كانت أنّ الإنسان مّيال بطبعه الى الحرب، والنزاع، والحرب صفة غريزية موجودة عنده، وهو في حال الطبيعة ، الحرب تشجع على نمو هذه الغرائز، ورجوعه إلى حال الطبيعة، أي: ماقبل الثقافة والاخلاق، والعقل الى عصر البربرية . فالحرب تكشف عن هذه النوازع اللاأخلاقية ويصبح فيها كل شيء مستباحا، ولايرّوع الإنسان قيم أو أخلاق، أو تربية، أو دين ففي الحرب يفقد الإنسان عقلانيته (٤٣) إنّ الإنسان لايستطيع ان يحرّر نفسه تماما من الطبيعة غير أنّه يؤثر بها، وصحيح أنّ الطبيعة تدفعه الى الاحتماء بالقانون من أجل نيل حريته، ومأمنه، ولكنه لايستطيع أنْ يتخلص من ظواهر أخرى في الطبيعة تدفعه نحو الاعتداء، والحرب يرى كانت أنّ ظاهرة الحرب ظاهرة قديمة في طبيعة الإنسان، إذْ يقول: إنّ الحرب ترجع بالإنسان القهقرى الى حالة الطبيعة الى حالة العدوان، والعنف وكل القيم غير الإنسانية. إنّ الإنسان ينمو عن طريق الفن، والعلم حيث إننا متمدنون في الشكليات الاجتماعية، واداب المعاشرة، ولكن أمامنا طريق طويل كي نبلغ غاية النضج الأخلاقي لكن حينما تبدّد الدول جميع ثرواتها على المشاريع التوسعية العنيفة التي لاطائل فيها إنّها تقوّض بذلك الجهود الهادفة الشاقة التي يبذلها المواطنون لإنماء قواهم الفكرية" (٤٤).

وفي كتابه"نقد ملكة الحكم" الذي تطرق فيه قضية الجمال والأحكام الجمالية يقول يمكن أنْ يكون هناك اختلاف حول هل رجل السياسة يستحق الاهتمام الاكبر ام القائد العسكري؟(إنّ علم الجمال يعطي رأيه لصالح القائد العسكري، فالحرب متى مأوجّهت نحو حقوق المواطنين بانتظام واحترام ذات

هدف مقدس وسمة شخصية الشعب الذي يدير تلك الحرب بنفس النسبة التي يواجه بها الأخطار ويتعامل معها بشجاعة، من ناحية أخرى يؤدي السلام الدائم عموماً الى تقلب روح النفعية، والأنانية الذليلة، والمرونة النسوية، وانجرار شخصية الشعب نحو الانحطاط)(٤٥) قد يبدو هذا الراي غريباً عن الطروحات الكانتية حيث إنّ النفس الكانتي ومجمل طروحاته تصب في مصلحة السلام، وذلك انطلاقا من رؤيته المعرفية والأخلاقية التي ترى أنّ الحرب تناقض مباديء العقل، وتناقض الأخلاق؛ لأنها تنمي الجانب الشرير، والسيء في الإنسان إنّها تنمي غرائز الطبيعة. والإنسان كلما ازداد وعياً، وثقافة، وتحضراً، التجأ الى الفنون، أقبل نحو السلام، والعكس صحيح. يرى كانت أنّ ملكة الوجدان (٤٦) التي هي وسط بين ملكة الفهم والإرادة توضح معنى الشعور الملائم، وغير الملائم، وهي مرتبطة بالوجدان. أي: إنّها مرتبطة بصفات الإنسان الطبيعية، وليس صفاته العقلية، وبالتالي فإن هذه الملكة حينما تطلق حكماً لايكون خاضعاً للعقل بل إلى الوجدان، ولقد بيّن كانت أنّ الحرب في طبيعة الإنسان. أي: في وجدانه، وبالتالي فان هذا الوجدان لايرفض الحرب بل يقدسه وهو في آخر المطاف يحترم المحارب أكثر من السياسي، فاذا ما اعتبرنا الوجدان هو بطبيعة الإنسان فإنّ طبيعة الإنسان تتجه نحو الحرب لا نحو السلام، وبذلك نرى كانت في كتابه (مشروع للسلام الدائم)يتحدث عن إجبار الطبيعة كأحد الضمانات لتحقيق السلام، والسلام واجب أخلاقي ينبثق عن العقل العملي، لامن طبيعة الإنسان، إنّ "كانت" في النص السابق يقترب من هيغل إذْ راى أنّ الحرب تسمو بشخصية الشعب، وكلما زادت الأخطار يتعامل الشعب بإيثار وشجاعة، ويبتعد عن الأنانية والمصلحية، وتتغلب روح الجماعة، وحب الوطن على المنافع الشخصية، وهو عكس مايفعله السلام الدائم في روح الشعب، إذْ تتغلب الأنانية الذليلة، والليونة، والاسترخاء ولعلّ موقفه هذا من الحرب غير معروف على مستوى كبير؛ لأنّ ما هو معروف عنه أنّه فيلسوف سلام اعتبر الحرب حالة استثنائية أو حالة تناقض القانون الأخلاقي(٤٧).

أسباب الحرب من وجهة نظر كانت

يرى كانت أنّ علاقة الدول فيما بينها أشبه بعلاقة الأفراد فيما بينهم في حالة الطبيعة، فهي علاقة يكتنفها العنف، وصراع المصالح، ولايوجد هناك قانون يحكم هذه الدول، ويفض النزاعات فيما بينها، ويقول في ذلك: تعيش الدول في علاقاتها الخارجية مثل الهمج الذين لاقانون لهم في وضع عار عن الحق" (٤٨) إنّ الدولة في الوضع الطبيعي ترى نفسها في ظل حرب مستمرة مع الدول الأخرى والعلاقات فيما بينها معقدة، بل هي أشدّ تعقيداً من علاقة الأفراد فيما بينهم في الوضع الطبيعي، وتكون هذه العلاقات على ثلاثة انواع هي:

١- علاقة دولة بدولة أخرى.

٢- علاقة دولة مع أفراد دولة أخرى.

٣- علاقة أفراد دولة مع أفراد دولة أخرى.

والسبب الثاني كما يرى كانت لقيام الحرب هي الأنظمة الاستبدادية التي تكون من طبيعتها التوسع، ولاتهتم بالإنسان وحياته. أي: الإنسان كغاية كبرى بل إنّ هذه الأنظمة المستبدة تهتم بمصالحها، ويكون همّها التوسع على حساب غيرها، ولايهم مواطنو الدول الأخرى فإذا كان هذا النظام لايهتم بمواطنيه، فيكون من المستحيل الاهتمام بمواطني الدول الأخرى (٤٩)، لذا فإنّ كانت يرى في قيام نظام جمهوري نيابي ديمقراطي خطوة مهمة في تحقيق السلام، وإنهاء الحرب، ويرى أنّه لايمكن قيام نظام جمهوري من دون أنْ يصل الإنسان إلى مستوى من الوعي بالحرية والنضج الاجتماعي، والعلم. فالنظام الجمهوري لايتحقق بمجرد توديع الأفراد الوضع الطبيعي، وقدومهم الى المجتمع المدني بل إنّ النظام الجمهوري الديمقراطي رهين بشروط كثيرة منها: النضج السياسي، والاجتماعي، ووعي الإنسان بالحرية والمسؤولية (٥٠).

والسبب الآخر الذي يعدّه كانت من الأسباب المهمة لقيام الحرب هو الاقتصاد حيث أنّ انهماك الدول بالتجارة والصناعة، يمنع قوى إنسانية كبيرة، وكثيرة من التفكير بالحرب، ويشجع على ازدهار السوق، ونمو الصناعة غير أنّ القيمة الفائضة المتأتية من الجهود الصناعية والاقتصادية يمكن أنْ تمهّد للعدوان والتفكير بالحرب ولعل كانت توصل الى السبب الأول للماساة الإنسانية الكبيرة التي عصفت بالبلدان المتخلفة، والضعيفة التي استعمرت من قبل الدول الأوربية في العصور الحديثة وأذاقها الاستعمار شتى أنواع الظلم، والتعسف، والقهر إذْ يعدّ الفائض في السلع المصنعة من أهم العوامل المؤدية للاستعمار، خاصة بعد الثورة الصناعية وتلك السلع تحتاج الى أسواق لتصريفها فضلاً عن حاجة البلدان المصنعة إلى أيدي عاملة رخيصة ممّا أدى ذلك إلى نشوب صراع بين الدول الأوربية للحصول على تلك الأسواق، إنّ فائض القيمة هذا قد أدى الى صراع داخل المجتمعات الصناعية نفسها وهذا ما أشرّه ماركس وأقام نظريته الفلسفية عليه (٥١).

كما يرى كانت أنّ من أسباب قيام الحروب، هو الجيوش المحترفة، أو ما يسمّيه الجيوش النظامية، إذْ إنّ الجيوش النظامية تستنزف ثروات إنسانية، ومادية كبرى تؤثر على الموازنة العامة للدولة، وهذه الثروات سواء أكانت بشرية أم مادية توضع في معسكرات لسنوات طويلة، وقد تحترق في ميادين القتال، وتتحول الى رماد (٥٢)، إنّ هذه الرؤية فيها الكثير من الذكاء والألمعية، وبعد النظر العميق لأسباب الحروب؛ لذلك يرى كانت إقامة جيوش شعبية من أبناء الشعب، وتدريبهم على السلاح وتعليمهم الدفاع عن انفسهم إذا ماداهمهم خطر خارجي، هذه الجيوش أكثر وطنية، واقل تكلفة، ولاتخطط للتوسع، والعدوان على البلدان الأخرى ولاتهدر فيها الثروات والطاقات البشرية، وهي تنهي هاجس العدوان، والحرب بين الدول.

ضرورة الحرب في الفكر الفسلسفي الهيغلي

يعد هيغل من الفلاسفة الذين يؤمنون بأنّ الحرب ضرورة، وأنّها موجودة في طبيعة الإنسان، ولايمكن تلافيها، وهي ليست شراً أخلاقياً محضاً، وهذه الرؤيا تمثل جوهر فلسفته، اذ يرى أنّه لايمكن قيام وعي حقيقي، أو تقدّم في الفكر إلاّ بصراع ألافكار، فالمواجهة، والصراع حتمي، وبدون هذا الصراع لايكون هناك تقدم بل ضمور، وجمود، وتحجّر .هذه الرؤيا قريبة من رؤيا هيراقليطس التي عرضناها بشكل مختصر في بداية هذا البحث .لقد طبق هيغل فكرة الصراع على عالم الطبيعة، فهو يوضّح تعارض الأشياء وصراعها فهناك لون من ألوان الحرب هو بمثابة القوة المحركة لتصور الطبيعة(٥٣)؛ لذا فإنّ حركة الفكر والحياة حسب هيغل هي جدل، والجدل يعني: الصراع، وليس هناك توقف في هذا الصراع.

ويرى هيغل من خلال مفهوم السلب الذي استخدمه كأداة في منهجه أنّ في الحرب شيئا ليس تجريبيا أو عرضيا بل تدخل الى مصاف " الفكرة الفلسفية التجريدية" أي: إنّ فكرة الحرب" الصراع" تدخل في لبّ البناء الفلسفي الميتافيزيقي "الهيغلي" (٥٤) .ويعطي ذلك دفعة قوية لشرعية الحرب من خلال البرهنه على أنّ الصراع أمر لابدّ منه، ومن خلال علاقة الدولة مع الفرد وعلاقة الدول مع بعضها يقول هيغل:"في الوجود التجريدي نجد أنّ العلاقة السلبية تتجلى على شكل علاقة آخر بآخر"أي: دولة بدولة أخرى" كما لو كان السلبي آمرا خارجياً ووجود هذه العلاقة السلبية يتخذ شكل حادث تشابك مع ظروف عرضية تاتي من الخارج لكنه في هذه حيث هي مثالية لكل ما هو متناه فيها – والجانب الذي فيه الجوهر من حيث هو قوة لامتناهيه ضد كل ماهو فردي، وجزئي، وضد الحياة، وضد الملكية، وحقوقها وضد كل الدوائر الأخرى". (٥٥) هكذا نرى أنّ أداة السلب بوصفها فكرية وتجريبية تصل بالإنسان إلى مستوى وعي أعلى من حالة الطبيعة التي كان يعيش فيها ليدخل في الكل الأخلاقي "الدولة".

إنّ للحرب قوة سلب كبيرة جداً، فهي سلب للمتناهى " الإنسان" وهي إيجاب الدولة وسلطتها سلب للأفراد؛ لأنّها تلغي حقوقهم، ومصالحهم، وملكيتهم، وحتى حياتهم، وينقلب السلب الى ايجاب بالنسبة للدولة، إذ الحرب تبرهن على السلطة المطلقة للدولة، وهذا السلب يضفي على الفرد صفته الايجابية، ويعطيه طبيعته الفعلية؛ لأنّه يقتنع بالكل الأخلاقي، ويدخله تحت مظلة الدولة.

إنّ أداة السلب هذه تحافظ على الكل الأخلاقي، وتجعله في أمانٍ (٥٦)؛ لذلك يجب ألا نستغرب من الموقف الهيغلي من الحرب، أو نعتبره موقفا شاذاً عن مجمل فلسفته، فموقفه من الحرب هو استنتاج طبيعي لفلسفته السياسية التي لاتنفصل عن البناء الشامل لنظامه الفلسفي، ان هيغل سوف" لايكون أمينا على بنائه الفلسفي، وعلى مذهبه، ومنهجه إذا عدّ الحرب مثلاً ظاهرة عابرة، أو شاذة، أو ظاهرة يمكن تلافيه أو أنّ السلام هو الأساس في الحياة، أو في طبيعة الإنسان أو هو الحالة العقلية والأخلاقية كما يرى كانت أنّ هيغل قارىء جيد للتاريخ الإنساني، وهو في الوقت نفسة فيلسوف أكثر

إحساسا بواقعه، حيث عاصر الحروب الطاحنة التي حدثت في زمانه؛ ولذلك فإنّ حلم السلام الذي تحدث عنه الفلاسفة والمصلحين قبل هيغل، وفي حياته يعّد حلماً غير واقعي، وبما يرى أنّ ماهو واقعي معقول والفيلسوف لايجب أنْ يتخطى واقعه، وهيغل لايجنح الى الخيال، ولايتحدث عمّا ينبغي أنْ يكون بل هو يصف، وبواقعية شديدة ماهو كائن، والحروب المستمرة والطاحنة نموذج لذلك؛ لذا كان من المعقول جداً أنْ يستنتج هيغل أنّ الحرب في طبيعة الإنسان – وأنّ الحرب ضرورية للدولة، وأنّه ليس هنالك سلام دائم (٥٧).

لاشرعية للحرب الفردية

حينما اراد هيغل ان يبرهن على معقولية الحرب وحتميتها، فهو لم يقصد بحرب الإنسان ككائن فرد خارج نطاق المؤسسة التي ترعاه الدولة. إنّ الإنسان حسب هيغل هو كائن جزئي "متناهي" وإذا مادخل الحرب لمصلحة فردية، أو منفعة عابرة زمانية زائلة سوف لاتكون حرباً ذا قيمة، أو حرباً أخلاقية، أو قانونية، لأنّ صراعه سوف يكون لغاية فردية، وليس لغاية كليّة أخلاقية، أو لهدف نبيل، وسوف تكون أشبه بصراع حيوانات لإشباع غرائزها.

لقد أوضح هيغل ذلك بشيء من الإسهاب حينما تحدث عن معارك، وبطولات أبطال العصور الوسطى، ومن قبلهم أبطال هوميروس في حروب طروادة، وأبطال الشعر العربي في العصر الجاهلي، وابطال الغرب المسيحي في العصر الإقطاعي أمثال فرسان الطأولة المستديرة، وحلقة الأبطال حول شارلمان (٥٨) .إنّ هؤلاء الأبطال ليس لهم ارتباط وثيق الصلة بالدولة، إنّ روح هؤلاء ألابطال، وإحساسهم بالحرية الفردية"المجردة" لايمكن أنْ يسمح لهم بالاندماج بالدولة؛ ولذلك فإنّ شجاعتهم وإقدامهم على تحمل الأهوال، والصعوبات في الحرب ليست نابعة من إحساسهم بوطنهم؛ لأنهم لايؤمنون بالدولة كجوهر أخلاقي كلي يجب الانضواء تحت حمايتها، والايمان بها بل يعتبرون أنفسهم هم الدولة، وهم فوق الدولة؛ لأنهم مؤسّسيها وحاميها، إنّ هؤلاء الأبطال لايشعرون بالتماهي مع الدولة، أو مع الملك الذي يمثل رمز الدولة إنّ الفرد البطولي لايقيم فاصلاً بين ذاته، وبين الكل الأخلاقي الذي هو جزء منه بل يعتبر نفسه يؤلف هذا الكل الأخلاقي وحدة جوهرية إنّ هؤلاء كما يرى هيغل لايتبعون سوى اهوائهم *فاغامنون* كان محاطا بالأبطال الأحرار الذين لاسلطان له عليهم بل كان يأخذ بمشورتهم في كل مناسبة ونرى رغم ذلك أنذهم يهجرونه وهو في منتصف الطريق(٥٩) إذْ يسعى كل منهم للمقامرة لحسابه الخاص كذلك هناك مثال النبلاء، والفرسان في العصر الإقطاعي في العصر الوسيط وبدايات العصر الحديث فرغم ارتباطهم بملكهم، ولكن الآصرة التي تربطهم بالملك تتعارض مع قانون الشرف، ونداء الشخصية الذي لابد من تلبيته(٦٠)، وهكذا هي روح الشخصية في العصر البطولي إنّها روح لاتشعر بالانتماء للوطن، إنّها روح أكثر استقلالية عن القانون، والواجب الوطني هي غير داخلة في الكليّ أي غير واعية بالقانون العام لذلك، فإنّ هيغل يجد من الصعب الاعتماد

عليهم في أزمنة الحرب، وحربهم لاتكرّس دخولهم، ووعيهم بالدولة شعورهم بفردانيتهم، وإحساسهم بحرية مجردة يقول هيغل:"العصر البطولي الذي كان فيه الفرد واحداً في الجوهر والمصدر- الذات تعتبر نفسها إنّها تفعل بمفردها كل ماتفعله وتستند الى نفسها"(٦١).

الفارس البطل، أو السيد في العصر البطولي يريد أنْ يحقق ذاته كذات حرة مستقلة بمعزل عن الدولة، والقانون، فما هو جوهري كما يرى هيغل هو الفردي المباشر :أي: الشخص الفردي خارج الأخلاق الموضوعية.

إنّ الحرب هنا لاتزيد هذا الفارس البطل"الفرد" إلاّ تفرّدا وابتعادا عن الاندماج في الدولة، وبالتالي فإنّ الحرب هنا لاتؤدي غرضها الأساس بالنسبة للفارس كما أراد هيغل ،إنّ الغرض الأساسي للحرب بالنسبة الى هيغل هو الاندماج في الدولة وهنا نرى العكس، تؤدي الحرب الى زيادة تفرّد الفارس، وإعتداده بنفسه فهو ينتظر من الحرب الشهرة، والجاه والسمعة ...الخ (٦٢). إذا وبهذا المقياس الجديد سوف تكون الحرب لاشرعية، ولاأخلاقية، إنّها حرب من أجل تعزيز النفوذ الفردي وتقوية شوكته لامن أجل قيمة أخلاقية عليا مطلقة، بل ستكون شجاعة الفرد أشبه بشجاعة اللصوص، والسفاحين وقطاع الطرق .إنّ شجاعة الفرد حسب هيغل يجب أنْ تظهر من أجل هدف نبيل وأخلاقي ومن أجل تماهي الفرد وتغلغله في الدولة وبوعيه بها يقول:" أنْ يعرّض الفرد حياته للخطر هو قطعا أكبر من خوف الموت، ولكن هذا يبقى أمراً سلبياً تماماً، وليس له أي تحديد، ولا أية قيمة لذاته، بل فقط العنصر الايجابي ، والهدف والمضمون هي أنّ تهب لهذا الهدف معنى أنّ اللصوص والسفاحين الذين يستهدفون الجريمة، أو المغامرون الذين لهم هدف صنعه رأيهم ... الخ ، لديهم هم الآخرون شجاعة تعريض حياتهم للموت..."(٦٣).

متى تكون الحرب شرعية؟

يرى هيغل أنّ" الحرب ليست حرب أسر ضد أسر أخرى بل حرب شعوب ضد شعوب أخرى لقد تحول الموت الى أمر عام؛ لأنّ مصدره أمر عام، المرء يقتل بدون غضب؛ لأنه إذا ظهر الغضب في القتال فانه يقضي على نفسه بنفسه ...الخ ، ومايدفع الى القتل هو الشرف القومي، وليس الرغبة في إصابة فرد بعينه، لكن الإهانة التي تسبب الحرب تنشأ في عدم الاكتراث التام بالشرف المتعلق بكل فرد على حده" (٦٤)إذاً لاشرعية لحرب بالنسبة للفرد إذا لم يكن الفرد داخل الدولة والحرب تقوم من أجل الدولة، ولتقوية آصرة المواطن بالدولة. ومن الواضح أنّ هيغل استغل فكرة الحرب؛ لتوضيح عقيدته في الدولة، فدولة هيغل هي ليست دولة المجتمع المدني التي يتصرف فيها ألافراد لمصالحهم الشخصية، أو لاشباع حاجاتهم ومن ضمنها الأمن أنّ قيم المجتمع المدني حسب ما يرى هيغل تتناقض تناقضا تاما مع الولاء الوطني، واندفاع الفرد للحرب؛ لأنّ الحرب سوف تدمّر كل مايسعى إليه الفرد، ومايُنشده في المجتمع المدني في الحرب تزول ملكيته وأمواله، وبيته بل حتى حياته التي

يسعى بشدة للحفاظ عليها، فالحرب كما يرى هيغل هي برهان حاسم على أنّ قيم المجتمع المدني، هي قيم نسبية زائلة، وأنّ سادت في السلم، فإنّ زوالها لآت لامحالة في زمن الحرب والحروب حادثة لامحالة في أي وقت من الأوقات وبالتالي فان هيغل يوضح لنا أنّ المجتمع المدني رغم أنّه لحظة جوهرية في تطور البشرية ولكنه ليس المرحلة النهائية أو الغاية النهائية للبشرية. أنّه يحأول إسقاط المجتمع المدني، وإسقاط وعي الإنسان به، وتبيان أنّ الإنسان لم يصل الى مرحلة من الحرية في داخل هذا المجتمع؛ لأنّه يبحث عن إشباع حاجات عرضية عابرة، وليس عن هدف سام أصيل باق، ونقصد به الدولة (٦٥)ولذلك يرى هيغل" أنّ المصير الذي يجعل من مصلحة الأفراد، وحقوقهم عنصراً مصيره الزوال هو في الوقت نفسه العنصر الإيجابي في فرديتهم ليس في فرديتهم العرضية المتغيرة، وإنّما فرديتهم الموجودة في ذاتها" (٦٦).

فالحرب إذا ذات فائدة للفرد؛ ليصبح أكثر فردية أي: أكثر اندماجا في الدولة وهي بمثابة الصدمة التي تعطي الوعي للإنسان، وتجعله يدرك أنّ الدولة جوهرية ثابتة غير زائلة، وبالتالي اذا فالحرب ترشد عين الإنسان الى الحقيقة، وتجعله يدركها بشكل أكثر وعياً، وكلما زاد الإنسان وعيا أصبح حراً. وباجتياز الإنسان قيم المجتمع المدني تكون لشجاعته في الحرب معنى فشجاعة الفرد ليست مجرد إقدام الفرد، أو بسالته، أو عدم خوفه ،الشجاعة هي الفعل الذي يرتبط الفرد بواسطته بالدولة يقول هيغل:القيمة الفعلية للشجاعة من حيث هي استعداد نفسي تقوم في الهدف النهائي، الحق، المطلق، تقوم في سيادة الدولة، وحقيقة هذا الهدف النهائي، بوصفه من عمل الشجاعة" (٦٧).

إنّ أي عمل مقدام آخر من قبل الفرد يكون من خارج نطاق شرعية الدولة لايعتبر فعلاً شجاعا. إنّ المطالبة بالحرية الفردية، والحقوق هو ليس عملا شجاعا؛ لانّ ليس من المشروع -حسب هيغل- ان نطالب بحقوق ومنافع، لأنّ هذه المطالب هي جزء من روح المجتمع النفعية، ان هذه المطالب تضعف الدولة وتعّبر عن عدم؛ ولائك والتحامك بهذا الكل الأخلاقي وأنّك هنا تطالب بمنافع، وقتية عرضية زائلة، وهذا يعبر عن أنّك لم تدرك الجوهر أو الحقيقة ، والحقيقة هو أنّك يجب ان تكون فردا داخل الدولة تطبق قانونها الكلي يقول هيغل:" أنّ الواسطة الى عمل الشجاعة هي التضحية بالحقيقة الذاتية، واي بالشخصية واصل هذا فإنّ الشكل يحتوي على قسوة المتقابلات الشخصية القصوى :المغايرة ، لكنه كوجود للحرية، والاستقلال الأكبر الموجود من أجل ذاته :الذي يتخذ وجوده في الوقت نفسه شكل آلية نظام خارجي وآلة الخدمة والطاعة التامة والتخلي عن الراي الشخصي، والحكم الشخصي وغياب الروح الخاصة" (٦٨).

إنّها فعلا قسوة من المتقابلات القصوى فالفرد هنا يجب أنْ يطيع باشد فروض الطاعة، وأنْ يخدم باقصى مايستطيع وأنْ يتخلى عن رأيه الشخصي، وان يغيّب عنه الروح الفردية فماذا يبقى من الشخصية – الإنسان- كي يكون شجاعا؟ يعلل ذلك هيغل بالدولة، وأدراك القانون الكلي، إنّه هدف

نبيل، فالدولة هي أكبر وأرقى، وأنبل، وأكثر شرفاً، وأكثر جوهرية، وأقل عرضية من الإنسان، واندماجه في الدولة وتخليه عن حريته الشخصية، وامانيه الخاصة، وملكيته يعبر عن وعي حقيقي. ومتى مأوصل الى هذه المرحلة من الوعي يقدم الإنسان على الحرب بكل شجاعة وجسارة، ويصل الى العقلانية الحقيقية.

إنّ ذوبان الشخص بهذا الكل وتخليه عن الأمور الشخصية كافة من الصعوبة بمكان بحيث يتطلب حسب هيغل جعل حضور الذهن أشد مايكون الحضور وبالتالي سيكون تصميمه أقوى في مواجهة العدو؛ لأنّه هنا له قيمة عليا، وهدف أكبر وأكثر شرفاً وبالتالي سيكون أفراد العدو بمثابة أعداء شخصيين له؛ لأنّهم يهددون الدولة التي هو جزء منها التي تمثله أنّها ليست عدأوة شخصية، فهو لايعرفهم ولاتربطه بهم مصالح، وليس هناك تقاطع شخصي بينهم بل لو التقوا في وقت اخر ووضع اخر لكان من الممكن أنْ يكون بينهم علاقة ود يقول هيغل:" إنّ مبدأ العالم الحديث، والفكر الكلي قد اعطوا الشجاعة أعلى شكل، وتجليها يبدو أكثر آلية، وكفعل شجاعة لم يقم به الشخص باعتباره فرداً بل بوصفه عضوا في كل، وكذلك هذا التجلي ليس موجهاً ضد أشخاص من حيث هم أفراد بل ضد كل معاد بوجه عام "(٦٩) ومن هنا فان هيغل يرفض شجاعة الفرسان، واقدامهم، ونقصد بهم فرسان العصور الوسطى؛ لأنّه يرى فيها شجاعة لاتقوّي رابطة الفرد بالدولة بل هي شجاعة شخصية من أجل شرف شخصي هي شجاعة أقل عقلانية، وجوهرية شجاعة عرضية(٧٠) .

وحتى يجرد هيغل الإنسان من فضائله ومنها فضيلة الشجاعة الخاصة به ، راى أنّ اختراع البارود كان فيه حكمة، فالشجاعة التي كانت صفة فردية في العصور الوسطى تتتميز بها طبقة بعينها قد انتهت، وأتت هنا شجاعة من نوع جديد اتى بها العصر الحديث، أو دولة الحداثة اصبحت الشجاعة صفة كلية يقول هيغل:" السلاح الناري قد بّدل الوجه الشخصي للشجاعة وحوله الى وجه أكثر تجريداً (٧١)".

ان من صفات هذه الشجاعة انها ليست صفة فردية وانها لم تكن موجهه ضد شخص بعينه، بل موجهه ضد جماعة، أو دولة وهي عكس ماكان معروفا في العصور الوسطى فالشخص حينما يحارب كان يحارب من أجل المال والجاه والسمعة الشخصية، والغنائم، وتقوية المركز، والنفوذ، أمّا الشجاعة آلان في دولة الحداثة فهي لاتحارب من أجل هذا كله بل تحارب من أجل الكل، من أجل الدولة وعزتها، ورفعتها فلابد من آلة جديدة يحارب بها المقاتل بحيث تقلل هذه الالة الإلتحام الشخصي بين الأعداء، إنّ هيغل يريد أنْ يقول إنّ العالم الحديث ابتدع هذه الآلة (السلاح الناري أو البارود)؛ لكي يسلب أهم صفة كان يتمتع بها النبلاء وهي صفة البطولة الفردية إنّ هذه الصفة كانت أهم الصفات التي تمنع الاندماج بالدولة كما مرّ بنا سابقا(٧٢).

ويرى هيغل أيضاً أنّ اختراع البارود، أو السلاح الناري قد جعل الحرب أكثر إنسانية، لأنّه قلل من المواجهة المباشرة بين الأفراد التي كانت موجودة في العصور القديمة، أي، معارك المبارزة بالسيف

حيث تكون المواجهة مباشرة، وقريبة جدا، فالجندي الذي يطلق الرصاص، لايعرف الأفراد، ولايتواجد معهم مباشرة، وبالتالي لاتحدث حالة العنف المباشر بين الأفراد كما كان يحدث في الزمن الحديث، إنّ عملية الذبح، وبتر الأطراف، وبقر البطون لاتأتي مباشرة بالسيف بل إنّ العملية غير مباشرة هذه العملية تاتي عن طريق السلاح الناري، ومن مسافات بعيدة، وبالتالي فإنّ الحرب هنا برأي هيغل أكثر حضارية، وإنسانية(٧٣).

وفي الحقيقة إنّ اختراع البارود، والسلاح الناري قد أدّى الى فتك، وقتل، ودمار أكثر للبشرية، وإنّ عملية القتل قد تضاعفت وشملت حتى المدنيين من النساء وأطفال وشيوخ، وبيوت، ومؤسسات مدنية...الخ. ولكن القتل هنا بدم بارد؛ لأنّ ليس هناك مواجهة مباشرة تبرز عنف الإنسان، وقسوته الحيوانية اللامحدودة في القتل ، البارود قد أضفى طابعا جماعياً للحرب، إنّه فعل يقوم به عضو في كل، وفي البارود يسلب المعنى الشائع للشجاعة فلا تكون في هذه الحالة مجرد إقدام، أو بسالة، أو لاخوف وإنّما تتحول الشجاعة الى تضامن، وإتحاد مع بقية ألافراد في سبيل تحقيق الغاية العليا، وهي سيادة الدولة إنّ هيغل يرى أنّه بسبب الدولة الحديثة التي أبدعها الروح التي تمثل المرحلة العليا في الروح الموضوعي كان لابد للفكر أنْ يبتدع آلة جديدة تجعل الإنسان الفرد يؤمن، أو يصل الى قناعة بأنّ فرديته لاتساوي شيئاً(٧٤).

الحرب وضرورتها في بناء الدولة

إنّ الحرب تكشف عن نسبية الوجود البشري، وضآلة حجم البشر إذْ إنّ الحرب مثل الكوارث الطبيعية توضّح للإنسان، وبشكل جلي بطلان الأشياء الوقتية هذا البطلان يؤدي الى إطلاق الأقوال الداعية الى التقوى، والورع، والرجوع الى الدين إنّ قيم الدين، والتقوى، والورع، والابتعاد عن الأشياء الوقتية العابرة كانت في أيام السلم قيما جزئية أي: ليست واقعية بل ذاتية ،ولكن هذه القيم تصبح حقيقة واقعة بالحرب (٧٥) ففي الحرب كما يقول هيغل:" يحافظ على الصحة الأخلاقية للشعوب في عدم اكتراثها بالأمور المحددة، وفي مواجهة العملية التي بها هذه الأمور غير محددة تستقر عادات وتصبح ثابتة مثلما أنّ حركة الرياح تحافظ على المياه في البحيرات من خطر التعفن التي يصيبها جرّاء السكون المستمر، وهذا مايحدثه بالشعوب السلام المستمر، أو السلام الدائم" (٧٦).

لقد أوضحنا فيما سبق أنّ الفكرة الرئيسية لدى هيغل هي الدولة، وكيفية المحافظة عليها وليس الفرد وأنّ الحرب هي الطريقة المثلى لكي يعي الإنسان أهمية الدولة. إنّ هيغل أراد أنْ يثبت بما لايدع مجالاً للشك أنّ الضرورة مطلقة للدولة ولتقوية بنائها هي الحرب، وليس السلام، الحرب تجعل الشعوب دائماً في توحّد وتجعل الفرد دائماً مهتما بالدولة الحرب هي أشبه بالصعقة الكهربائية التي تصحّي المريض من غيبوبته، فالحرب تنبّه الإنسان لاهمية الدولة ، الفرد بالحرب يدرك لانهائية الدولة، ويدرك بنفس الوقت نهائيته وجزئيته أمام الدولة فإنّ شعور الحرب هذا يقوي الدولة ويبعد عنها

الانحلال كما أراد هيغل أنْ يجعل شعور الحرب هذا شعوراً مستمراً لدى الدولة وإنْ لم تكن هناك حرب موضوعة،وإنّ الحرب هي سمة أساسية من سمات الدولة فقد تأسست الدولة على الحرب، وحافظت على وجودها بها والانتهاكات الخارجية هي مجرد مناسبات للحرب، (٧٧) بل إنّ المجتمع الذي ليس له أعداء يهددونه لايمكن أنْ يصبح دولة ، (٧٨) فالدولة بالمعنى الصحيح عنده لاينبغي أنْ تريد شن الحرب فقط بل لابد لها أنْ تشن الحرب فعلاً إذا مأواتتها الفرصة في ذلك (٧٩).

إنّ هيغل قد يكون استوحى فكرة ضرورة الحرب في بناء الدولة من ميكافيلي حيث يرى الأخير أنّ الحرب هي التي تقوي أسس الدولة، وتمنعها من الانهيار، والسياسة لاتفيد (أي: السلام والدبلوماسية) بل قد تضر في الكثير من الأحيان (٨٠) وقد أعطى ميكافلّي شواهد كثيرة على ذلك، فالسلام، والسياسة قد تهدم الدولة، والحرب وإعلانها قد يمنع حروبا أخرى تشنّ على البلاد، والدولة في ظروف غير مستعدة للحرب ممّا يؤدي الى انهيارها (٨١).

الحرب إذا ليست شراً مطلقاً، بل هي على النقيض من ذلك الحرب كما قلنا سابقا تلفت نظر الوعي الفردي الى الشيء الجوهري الحقيقي، والضروري الذي يجب أنْ نسعى إليه، فبدون الحرب لايمكن أنْ يتوضح ماهو صائب، وصحيح ولايمكن للحقيقة أنْ تتضح إنّ الشيء العرضي من وجهة نظر التفكير العقلي الشعوري شيء لاقيمة له يجب إبعاده؛ لأنّه لايوصلنا للحقيقة ، إنّ الحرب حينما تقوم ليست بسبب المنافع والأشياء العرضية العابرة فالحرب تقضي على هذا كله تقضي على الممتلكات والمنافع بل حتى على نفس الإنسان، إنّ ضرورة الحرب، وغايتها هو : أنْ يتبين إنّ كلَّ شيء زائل، وعابر، ولكن حينما تكون الحرب من أجل الدولة واستقلالها، ووجودها يتوضح نبل الحرب من نبل الهدف يشعر الإنسان بلا تناهيه؛ لأنّ الهدف الذي يسعى الى تحقيقه غيرمتناه (٨٢).

من ذلك إنّ الحرب إذا هي سلب الوعي الجزئي، والقيم الجزئية العرضية الزائلة يقول هيغل:"كي لاتترك الغايات الجزئية تغوص وتتحجر في هذه العزلة وتحطمّ الكلي الى شذرات والروح تتجزأ فأنّه يجب على الحكومة بين الحين والآخر أنْ تهزّها من أعماقها عليها بالحرب إنّ تقلب النظام الذي يصبح عاديا وأنْ تنتهك حقها في الاستقلال" (٨٣).

الحرب إذاً هي بمثابة الدواء الذي يمنع مرض التفكك، والسلم الدائم هو المرض الذي يدفع الإنسان إلى عدم التفكير بالدولة أي: العزلة، وعدم الانتماء، والانشغال بالحياة الخاصة، الحرب هي التي تجعل الفرد مواطناً يفكر بالوطن قبل أنْ يفكر بمصلحته الشخصية، ومن خلال هذا النص أيضاً ينقلنا هيغل الى فكرة أخرى تبيّن أهمية الحرب بالنسبة إلى الإنسان ذاته إذْ يقول:" يجب على الحكومة في هذا العمل "الحرب" المفروض عليه أنْ تشعرهم بسيّدهم، وهو الموت فبفضل هذا الانحلال لشكل المعاش تمنع الروح من الغوص في الآنية الطبيعية بعيدا عن الآنية الأخلاقية. أنّها بذلك تحافظ على ذاتية الوعي، وتسمو به في الحرية" (٨٤) والحرب هنا تكون نقيض الحياة العابرة، وشعور التشبث

بالحياة، يجعل الإنسان عبداً لهذه المنافع بل تجعله أقل شجاعة؛ لأنّه متشبّث بالحياة، وبالتالي سوف يتنازل عن الكثير من حقوقه الأخرى التي هي أسمى من حياته المادية، وأنّ وصول الإنسان الى مرحلة الاستهانة بالموت سوف، يجعله يدرك الحرية الحقيقية الموت، أو التضحية بالنفس من أجل سيادة البلد، ومن أجل أنْ يكون البلد حراً، معناه: خروج الإنسان من آنّيته الطبيعية، ودخوله في آنّية أخرى. أي: الآنية الأخلاقية"الدولة" وهذا يشعره بلانهائيته، وعظمته يرى هيغل أنّ الخوف من الموت يجر معه فقدان الحرية، وأنّ الحرية المحضة هي في تجليّها الظاهري الموت، وبواسطة الاستعداد للموت تكشف الذات عن كونها حرة، وأنّها فوق كل قسر" (٨٥).

الحرب إذاً هي ضرورة فكرية: ولذلك فهي ضرورة واقعية لايمكن تلافيها وهي عند هيغل جزء من حياة، وتطور الفرد، والسلم هو نقيض الحرب يؤدي الى موت الدولة. ولعلّ هذه الفكرة قد أخذها هيغل من "كانت" و"فختة" (٨٦)، قد تبدوا هذه الأفكار متطرفة جداً وتدعو الى بناء الدولة القومية، والى سلطة مركزية قوية على حساب حرية الفرد فالإنسان في نظام هيغل جزئية عرضية يحأول دائما الالتحاق بالكلي، أو هو متناهي يحأول بشتى الطرق الالتحاق باللامتناهي والتماهي معه، ومن هذا المنطلق أيضاً فان هيغل لم يجهد نفسه في البحث في الاخلاق الذاتية التي تخص الإنسان الفرد وبالتالي فإنّ وظيفة الفكر يجب أنْ تتخطى الأخلاق الذاتية والبحث يجب أنْ ينصب عن الأخلاق الموضوعية والتي تكون الدولة غايتها العليا وبالتالي فكل الامكانات يجب أنْ تسخر لصالح الدولة، وقوتها، وعزّتها لذلك نرى من الطبيعي أنْ يرى هيغل في الحرب صحة في الروح الإنسانية، أو روح الشعوب؛ لأنّ الحرب بالفعل تقوي النظام المركزي للدولة، وتؤدي الى استبداد الدولة، وإطاعة أوامر الدولة بشكل مطلق، ليس لأن الفرد يدرك الدولة، ولانهائيتها، أو يدرك تفاهة الامور المادية ونهائيتها أو الاندفاع نحو الموت يهب الإحساس بالحرية كما يرى هيغل بل، لأنّ في الحرب يكون كل شيء جائزاً وكما يقال: كل شيء جائز بالحب والحرب، فباسم الدفاع عن الوطن تنتهك كل حقوق الإنسان بما فيه حقه في الحياة وإعلان حالة الحرب مفاده الغاء كل القوانين المدنية وبذلك تبرر كل قسوة وتبرر الاعدامات المدنية، وتحل المحاكم العسكرية محل المحاكم المدنية، والأحكام العرفية مكان القوانين المدنية، والحرب في حقيقتها هي ربيع الدكتاتورية، وخريف الديمقراطية الحرب لاتؤدي الى التكافل الاجتماعي، وتقوية أواصر المجتمع إنّها كارثة ولكنها ليست كارثة طبيعية، بل هي كارثة إنسانية يخطط لها، أو يقوم بها البشر انها في الحقيقة تؤدي الى تهديم البنية الاجتماعية، تؤدي الى جيش من الأرامل واليتامى الى جيش من المرضى النفسيين، وغير الأسوياء مهووسين الى العنف والقتل يتحولون الى قتلة ضد اسرهم ومحيطهم الاجتماعي، هم بحاجة الى مؤسسات ومستشفيات صحية، ونفسية خاصة كي تؤهّلهم مرة أخرى الى الاندماج في المجتمع والعائلة.

إذاً فما السبب الذي دفع هيغل أنْ يصوّر الحرب بهذا الشكل الإنساني أو أنّها تحمل قيما أخلاقية عليا، بل إنّها تتجلى القيم الاخلاقية؟ حتى إنه لم يدع مورداً من الموارد أو مثلاً من الأمثلة الا ضربه ليبرهن لنا أنّ الحرب خير، وليست شراً ففي الحرب مثلا تبطل الأشياء الوقتية، والعابرة، وفي هذه الحرب تنطبق أقوال التقوى وتؤخذ مأخذ الجد، إنّه هنا يرى أنّ الحرب تاكيد واقعي لما يقوله رجال الدين، ويدعو إليه من أنّ نعم الحياة زائلة؛ لأنّ حياة الإنسان نفسها زائلة فوجب الابتعاد عن ملاذ الحياة، والانصراف الى ماهو أحسن، وأكثر فائدة للنفس بالنسبة الى رجال الدين الأحسن هو الانشغال بالعبادة وتربية النفس على التقشّف والزهد .... الخ، هذا هو هدف رجال الدين، أما هدف هيغل فهو التحام الفرد بالدولة، ولكن هذا الهدف من المنافع الدنيوية؛ لأنْ الدولة شيء دنيوي واقعي مادي ونحن هنا نرى أنّ دعوة هيغل مناقضة لدعوة رجال الدين هي دعوة لتربية النفس، وكلما ازداد الإنسان عبادة وابتعد عن النشاط الاقتصادي صار في عزلة، وتفرّد وأصبح أقل احتكاكاً بالمجتمع ودعوة رجال الدين هي دعوة سلام لا دعوة الى الحرب، لأنّه بابتعاد الناس عن المنافع الشخصية ، سوف تنتهي المشاكل، ويعيش الناس في سلام أمّا دعوة هيغل فهي على العكس تماماً إذ الدولة هي واقع دنيوي، والهدف الذي يسعى الفرد اليه هنا هو تقوية الدولة، والحفاظ على كيانها ومصالحها الدنيوية وهو هدف ليس فرديا بل ان الحرب كما يرى هيغل تؤدي الى الوحدة بين الأفراد والى التوجه نحو هدف كبير، ولكنه دنيوي فشتّان، مابين الدعوتين وحتى هيغل نفسه قد رأى ان الزهد والتقوى والرهبنة ضد الدولة، لأنّ الدولة تعبر عن حالات دنيوية والرهبنة والتوحّد والتقوى مواقف ذاتية تزيد الإنسان والفرد عزلة (٨٧).

إنّ سبب ميل هيغل للحرب نابع من مفهومه الميتافيزيقي للدولة، فهي عنده ليس مجموعة أفراد، وليست ذات صفة تنظيمية كما هي دولة المجتمع المدني، بل هي تجمع صفة الفردية وهي كائن حي ووحدة مغلقة على نفسها تطوّر نفسها وتنمي حياتها داخل ذاتها، وهي فرد، وليست كومة من أجزاء، وانّما هي وجود واحد أي: وحدة عضوية والفرد داخل الدولة ليس عنصر أساسي لتكوينها بل هو الذي يحتاج الدولة، وليس العكس، الفرد هو جزء من الدولة، أو عضو في الدولة، وهذا العضو إذا انفصل يموت، ويتلاشى، وينتهي، ولكن الكل لاينتهي أو يموت، إذا انفصل عنه هذا الجزء، أي: إنّ الجزء محتاج الى هذا الكل العضوي وتتسم الدولة بالفردية من حيث ماهيتها وهي عبارة: عن فرد ومن حيث السيادة أو فرد مباشر متحقق بالفعل(٨٩).

الأمير وقرار الحرب

الدولة حسب هيغل ثلاث سلطات هي السلطة التشريعية، والسلطة التنفيذية، والملك أمّا السلطة القضائية فقد دمجها هيغل بالسلطة التنفيذية، السلطة التشريعية تمثل الكليّ، والسلطة التنفيذية تمثل الجزئي، والملك يمثل الفردي، إنّه رمز الدولة، وتتجسد في الملك كليّة الدولة وان شخصية الدولة لاتكون حقيقية إلا إذا كان شخصاً واحداً شخصاً طبيعياً، وهو الملك يمثلها (٩٠)

إنّ هذه الحياة الفردية الواحدة للدولة، وهذا المركز الحاكم الموحد، أو هذه المثالية العليا التي تجمع في ذاتها جميع أجزائها لايمكن أنْ توجد بالفعل، وتتحقق إلاّ في فرد واحد وموجود وهذا الفرد الواحد يمثل حياة الكل انه الملك (٩١) ومن هذا نستنتج أنّ الملك يمثل سيادة الدولة ويمثل فردية الدولة (٩٢) ولذلك كان من الطبيعي أنّ يكون قرار الحرب والسلام بيد الملك يرى هيغل "اذا كانت الدولة تتوجه الى الخارج فهذا ناشىء من كونها ذاتاً فردية وعلاقاتها مع الدول الاخرى تتوقف اذاً على سلطة الأمير الذي له وحده الحق في الإمرة على القوات المسلحة ووضع علاقات مع الدول الأخرى بواسطة السفراء واصدار قرار الحرب وعقد السلام" (٩٣) إنّ هيغل يدعو الى سلطة ملكية مطلقة وراثية والقرارات المصيرية يجب أنْ تكون بيد هذه الذات الفردية ومن هذه القرارات قرار الحرب فالأمير هو الدولة وبه تتمثل شخصية الدولة انّ استنباط هيغل قد أوصلنا الى هذه النتيجة وبما أنّ هيغل يؤمن كما آمن ميكافيلي (٩٤) من قبل ان الدولة لاتتوحد إلاّ في ظل سلطة ملكية (بطريقة الحديد والنار) عن طريق القوة، ولانه قد خاب أمله في الحكومة الجمهورية كما أوضح ذلك في نقده للثورة الفرنسية (٩٥) فانه قد توصل الى قناعة بانَّ الملكية الوراثية هي الحل على أقل تقدير في بلده المانيا بمعنى انّه يجب أنْ يكون هناك رمز لفردية الدولة بالمصطلح الميكافلّي هذا الرمز تتجلى فيه كل صفات الدولة، وليس هناك سلطة أو حكومة يمكن أنْ توحد البلد غير السلطة الملكية فالملك أو الأمير يكون بيده سلطة إصدار القرار أو سلطة الحرب لانّه يمثل الدولة وهو العارف بمصالحها خاصة مع الدول الاخرى أكثر من أي مواطن آخر وبما أنّ الحرب في نظر هيغل من فوائدها توحيد أبناء الشعب وتوجههم نحو الدولة فالأحرى بالأمير أنْ يفكر دائماً بالحرب لا في السلم (٩٦) ولهذا أنّ هيغل يرى أنّ علاقة الدول بالدول الأخرى تشبه العلاقة بين الأفراد في الوضع الطبيعي اذ يرى أنّ "السيادة ليست تشريعية أو تنفيذية وانها اساسا فردية بين فرديات أخرى انها فردية كاملة لاتختزل وبما انه لايمكن أنْ تكون بين الافراد سوى روبط مباشرة طالما لم تتكون أي وحدة عليا فانه لأوجود لقوانين عينية قابلة للتطبيق بين الدول في علاقاتها فيما بينها (٩٧)، واذا كانت علاقات الدولة مع الدولة الاخرى هي علاقة طبيعية لانها فردية بين الفرديات فأن الوضع الطبيعي أنْ تكون هناك حروب مستمرة أمّا حالة السلام فستكون حالة استثنائية، لأن الإنسان في الحالة الطبيعية في المفهوم الهوبزي في حالة حرب دائمة حرب الكل (٩٨) ضد الكل. إنّ الذي يعبّرعن هذه العلاقة أي علاقة دولة بدولة اخرى هو الملك فالملك فرد طبيعي وبالتالي سيكون من الطبيعي أنْ يفكر هذا الملك في

مصلحته التي هي مصلحة الدولة ومنفعته وهنا يبدأ تضارب المصالح بين الدول يؤدي هذا الى حالة الحرب والملك يعرف متى تكون الحرب ومع من لأنه الأدرى بمصلحة البلد وهو المحافظ الأمين على سيادته لانه الدولة.

إنّ الدولة الملكية تكون أكثر استعداداً للحرب والأقدر على خوضها من الدولة ذات النظام الجمهوري الديمقراطي وقد أشار (كانت) الى ذلك اذ رأى أنّ السلطة يجب أنْ تكون جمهورية ديمقراطية لأنّ قرار السلام والحرب بيد الشعب وبما انّ الشعب ينحو نحو السلام والسكينة لأنّ الحرب في رأي (كانت) أمر طاريء وغير مرغوب فيه لانها تزهق أرواح الناس وتخرب الممتلكات وتؤدي الى الاستبداد ولذلك اذا كانت السلطة بيد الشعب أي جمهورية فسوف يكون من الصعوبة أنْ تسعى الدولة الى شن حرب وسوف تلجأ الى الطرق الدبلوماسية لحل المشاكل والازمات بينها وبين الدول الاخرى وتتجنب قدر الامكان القيام بالحرب.

الا أنّ هيغل يرى عكس ذلك، اذ أنَّ الأمير في معظم البلدان الأوربية هو الرأس الفردي للدولة وعليه أنْ يسهر على العلاقات مع الدول الاخرى وحتى ان وجدت منظمات وجمعيات فيمكن أنْ نتساءل هل هذه الجمعيات هي التي ينبغي أنْ تقرر الحرب والسلام ويكون لها دور في هذه القضية لأنّها هي التي تقرر وسائل تمويل الحرب وقد ضرب هيغل مثلافي انكلترا حيث لايمكن قيام حرب لايرضى عنها الشعب وراى البعض أنّ الامراء والوزراء أسهل خضوعاً للانفعالات من الجمعيات النيابية (البرلمان) ولهذا يجب أنْ يُترك للبرلمان مهمة إعلان الحرب واقرار السلام ولكن هيغل يعترض على هذا الرأي ويأتي بدليل يؤكد عدم صحة هذا الرأي حيث يرى أنّ الشعب هو الذي ينساق وراء الحماسة والانفعال أكثر مما ينساق أمراؤه وفي مناسبات عديدة كان الشعب هو الذي يدفع السلطة الى إعلان الحرب والى حد ما أرغم الوزراء على القيام بها ولكنّ الوزراء يحاولون ان يحدوا أو يخففوا من هذه الانفعالات لأنهم يرون أنّ الحرب التي يريد الشعب خوضها فيها ضرر على البلاد وانّها ليست في وقتها المناسب أو انّ الدولة غير مستعدة لخوضها وان من الممكن تحاشيها ، يريد هيغل أنْ يبرهن هنا أنّ الأمير هو وحده الذي يقرر متى وأين يمكن أنْ تُخاض الحرب لأنه الادرى والافضل في هذا الامر وبالتالي فانه لايجب أن يُترك قرار الحرب والسلام بيد الشعب، (٩٩) ويستنتج من ذلك أنّ السلطة يجب أنْ تكون ملكية وليست جمهورية حتى وانْ كانت السلطة جمهورية فأن قرار الحرب يمكن أن يتخذ وان السلطة الجمهورية لاتحد من الحروب بل قد يكون العكس.

تبدو الرؤيتان الكانتية والهيغلية متضادتين والتضاد هنا بسبب الاختلاف في المنطلقات (فكانت) يريد سلاماً دائماً ويرى فيه الوضع الطبيعي للبشرية اذا مأوصلت الى مستوى من الوعي والعقلانية أمّا هيغل فأنّه يرى أنّ السلام الدائم حلم بعيد لايمكن تحقيقه لأنّه لايبني دولة بل قد يهدمها فهيغل لايرى في الحرب شراً كما أوضحنا ذلك سابقاً، بل يرى فيها خيراً ولايرى أنّها تهدم القيم بل تحافظ على

الصحة الأخلاقية للشعوب وبالتالي فانّ (كانت) كان مختلفاً عن (هيغل) في مسالة شكل الدولة ونظام الحكم (فكانت) كان يسعى الى حكم جمهوري وهيغل كان يسعى الى حكم ملكي وراثي أقرب الى الاستبداد والمركزية(١٠٠) هيغل كان يسعى لبناء الدولة ويرى الحل في الواقع الالماني هو في الدولة المركزية وانّ أهم أدواتها هي الحرب، اذ في الحرب يصل الإنسان الفرد الى قناعة أنّ الدولة هي الأساس، في الحرب كما يرى هيغل يتحول الفرد الى مواطن ويتخلص من عرضيته وجزئيته ويلتحق بالكلي والحرب هي أحد عوامل تقدم البشر وتقدم وعيه.

أثر الحرب والسلام في علاقات الدول

يرى هيغل أنّ الاساس في علاقة الدول مع بعضها هي الحرب وليس السلام فالدولة كما وصفها (هيغل) وأوضحنا ذلك سابقا هي كائن عضوي وهي فرد وليس تجمعاً محضاً أو مجموعة أجزاء هي وحدة عضوية وبالتالي هي واحد يستبعد الآحاد الاخرى وبما انها الفرد اذاً يجب أنْ يكون لها علاقة بالأفراد الآخرين من نفس نوعها أي بالدول الأخرى وهذه العلاقة أو العلاقات بين الدول قائمة على اعتراف الدول بعضها بالبعض الاخر وهي تشكل حسب هيغل مانسميه بالقانون الدولي العام(١٠١)، انَّ هيغل يرى حتمية الحرب ولايرى امكانية سلام دائم فبالاضافة الى كون أن الدولة تتأسس على الحرب وأنه لايمكن قيام دولة حقيقية بدون حرب كما ذكرنا ذلك سابقاً ان هيغل شكك بكل الاسس التي طرحها فلاسفة السلام أنّ تشكيك هيغل بالسلام الدائم نابع من فلسفته للدولة والاخلاق، فبما أنّ الدولة فرد مباشر متحقق بالفعل وبالتالي فعلاقاتها بالدول الاخرى تشبه علاقات الافراد فيما بينهم في المجتمع المدني فالاشخاص في المجتمع المدني مستقلون والفردية هي إدراك الفرد لوجوده كوحدة مستقلة تتمايز تمايزاً حاداً عن الآخرين وهذه الصفة أي صفة التمايز في الفرد داخل المجتمع المدني هي نفس الصفة الموجودة للدولة في علاقاتها بالدول الاخرى(١٠٢) كما انّ هناك واقعاً معاشاً يجب ملاحظته والفيلسوف لايجب أنْ يكون خارج هذا الواقع فواقع العلاقات الدولية هي هذه الحرب الدائرة بين الدول اذ انّ هناك حروباً مستمرة لاتنقطع ولايمكن أنْ ياتي يوم والبشرية في حالة سلام دائم والتوقفات التي تحدث بين الحروب هي هدنة وليست سلاماً دائماً وسوف تندلع حرب جديدة بمجرد وصول الدول الى استعداداتها لشن حرب جديدة وهذا هو الواقع، والواقع معقول كما يقول هيغل والفيلسوف مهمته توظيف أو قول ماهو كائن وليس ماينبغي أنْ يكون لأنّ ماينبغي أنْ يكون غير معقول والمعقول هو الذي يحدث بالفعل أمّا ماينبغي أنْ يكون فهو لم يحدث، وبالتالي هو ليس عقلياً أي ليس جوهرياً ومهمة الفلسفة هي تحليل الواقع كما هو والواقع يثبت أنّ هناك حروباً مستمرة على مّر التاريخ مادامت هناك دول ومصالح متضاربة فيما بينها.

إنّ بنية الدولة الهيغلية أو انّ الفكرة الهيغلية عن الدولة لاتسمح أنْ يكون هناك سلام دائم فالعلاقات الدولية تبنى على أساس بنية الدولة نفسها والطريقة التي بنيت فيها الدولة وتكونت هي الحرب

والصراع الداخلي الذي أنتج الدولة ينتقل الى الخارج الى علاقاتها الخارجية مع الدول الاخرى فالدولة حينما تسيطر على الافراد تضفي نوعاً من الامان والاطمئنان عليهم باعتبارها هي الكلي أو هي القانون الكلي الذي يلجأ اليه المواطنون في حل النزاعات فيما بينهم.

إنَّ الصراع الذي كان في المجتمع المدني بين الافراد بسبب المصالح وتضاربها ينتقل الى العلاقات بين الدول مع بعضها ولما كانت الدولة فرداً يشبه الافراد في المجتمع المدني فانّ الطابع الاساسي لعلاقاتها بالدول الاخرى يشبه العلاقات الفردية القائمة في المجتمع المدني فمثل هؤلاء الاشخاص من شخصيات مستقلة بالضرورة كذلك فانّ السمة الاساسية لكل دولة في علاقاتها بالدول الاخرى هي استقلالها ولكنَّ الاختلاف الرئيسي في علاقة دولة بدولة أخرى عن علاقة فرد مع فرد آخر في المجتمع المدني هو أنْ الصراع والخلاف بين الافراد يفصل بينه قانون الدولة أي انّ الدولة متمثلة بقانونها تعلو على الاشخاص في حين ان الدولة لايعلو عليها شيء فلا سلطان على الدولة ولايوجد بين الدول دائرة أو مؤسسة أو تشكيل أو سلطة أعلى من جميع الدول أو مايسميه هيغل (دائرة موضوعية للحق الكلي) وعلى ذلك فانّ افعال الدول تحكمها إراداتها التعسفية (١٠٣).

إنّ علاقة الدول فيما بينها تكون أشبه بعلاقات الأفراد فيما بينهم وهم في حالة الطبيعة في مفهوم هوبز، أي انه ليست هناك سلطة يمكن أنْ تحق الحق وتحكم بالعدل وكما يقول هيغل:" إنّ حقوق الدول لاتتحقق بالفعل الاّ في اراداتها الجزئية ولكن ليس في إرادة كلية قوامها سلطة أعلى منها ومن ثمّ فانّ هذا الشرط لكي يتجاوز ماينبغي أن يكون ومايحدث فعلا هو انَّ العلاقات الدولية تسير طبقاً للمعاهدات وتتعثر وفقاً لقطع هذه العلاقات"(١٠٤)، نقول كيف يرى هيغل الدولة بهذا المستوى من الأخلاق؟ حينما يشبهها مثلاً في علاقاتها مع بعضها كعلاقات الافراد مع بعضهم في المجتمع المدني فالافراد في المجتمع المدني تجمعهم المصالح واشباع الحاجات إنّ غاية الفرد في المجتمع المدني هي المصالح والمنافع الزمانية الزائلة كما يسميها هيغل وهو يشبّهها مرة ثانية بعلاقات الدول فيما بينها بالحالة الطبيعية عند هوبز حيث مجتمع الغريزة والوعي المتدني والروح لازالت غير متجليّة والحرب من أجل إشباع الغرائز وليس من أجل هدف نبيل والحرية طبيعية عشوائية وليس هناك حرية حقيقية وليس هناك قانون أو وعي كلي فالإنسان يجري بحرية نحو إشباع غرائزه فهو لم يدرك الكلي الذي هو الدستور أو الدولة، اذاً توصيف علاقات الدول مع بعضها بهذا الشكل لايتعارض هذا مع الفهم الهيغلي للدولة؟ الم تكن الدولة هي الجوهر الاخلاقي الواعي لذاته ؟ الم تكن الدولة قمة ماتصل اليه الروح الموضوعية التي وجدت في الاسرة ومن ثمّ في المجتمع المدني؟ الدولة هي قمة ماتصل اليه الروح أو العقل الدولة كما ذكرنا سابقاً هي نهج الله على الأرض أو هي المطلق على الارض اذاً كيف تتصرف الدولة بهذه الطريقة اللاأخلاقية، وبهذه السياسة المنزوعة من القيم في علاقاتها مع بعضها يرى هيغل:"انّ الدول في علاقاتها مع بعضها البعض دول مستقلة تتواجه كإرادات جزئية خاصة وان

مصداق المعاهدات يقوم على هذا الأساس وإنْ الارادات الجزئية للكل خيرة ...ان هذا الخير هو القانون الأعلى الذي يحدد سلوك الدولة في علاقاتها مع الدول الاخرى وخصوصا ان صورة الدولة (IDEE) هي انّ فيها التعارض بين الحق بوصفه حرية مجردة وبين المضمون الذي يمثلها :الذي هو الخير – نقول: ان هذا التعارض يقضي عليه وان الاعتراف الأول بالدول يعد صالحاً بالنسبة اليها كلها من حيث هي كليّات عينية" (١٠٥)، لقد وضع هيغل صورتين للدولة مختلفتين عن بعضهما الصورة الأولى لدولة بمعناها المثالي أي الدولة التي صوّرها في مسيرة الروح والتي تجمع الأخلاق والقيم النبيلة والتي تكون رمزاً للحق والخير والعدالة والحرية والتي ينجذب اليها الفرد لانّه يجد حريته فيها ويجد هدفه الأعلى النبيل ويدرك كليته (١٠٦).

والصورة الثانية التي هي حقيقتها الفعلية شيء آخر اذ نجد هنا أنّ جوهر الخير للدولة هو خيرهما الخاص بوصفها فردية بين الفرديات بالمعنى الهيغلي ومصلحتها المعينة في موقف وفي ظروف خارجية معينة، بما في ذلك العلاقات الخاصة الناشئة عن المعاهدات فانّ الدولة هنا لاترجع الى الفكر الكلي الاخلاقي التي بنيت عليه في علاقاتها مع الدول الاخرى والمرجع الذي ترجع اليه الدولة في الحروب والمعاهدات من منافع للدولة وليس هو القانون الاخلاقي العام أو الكلي وبالتالي فإن الدولة هنا كأي فرد في المجتمع المدني أو في حالة الطبيعة لاتلتفت الى المفاهيم الكلية الاخلاقية بل الدولة هنا تحارب من اجل مصالحها الخاصة أو منافعها لامن أجل قانون أخلاقي أي ليس من أجل مبدأ كليّ (١٠٧) وهنا قد يبدو هناك تقابل حاد بين الاخلاق والسياسة لقد أراد (كانت) قبل ذلك أنْ يطابق الأخلاق كقوانين عامة وعقلية بالسياسة كأمر واقع وأعتبر أنّ هذه العملية هي من آصعب العمليات أنْ تتوازى السياسة مع القيم الاخلاقية واعتبر ان القيم معرفية فمتى مايصل السياسي الى مرحلة من الوعي بحيث يدرك القانون الاخلاقي يستطيع رجل السياسة أن يعمل في الواقع وفقا للقانون الاخلاقي أي مجرداً من الهوى والعواطف والمنافع الشخصية (١٠٨).

في حين ان هيغل يرى أنّ الدولة يجب أنْ تتعامل بواقعية خاصة مع الدول الأخرى أي بما هو كائن وليس بما ينبغي أنْ يكون، اذ يرى أنّ خير الدولة ليس له معنى آخر غير الخير الخاص بفرد جزئي وانّ الجوهر الأخلاقي (الدولة) له وجود عيني مباشر وليس وجوداً مجرداً وهذا الوجود العيني ليس أي فكرة من الافكار العامة أي ليس قانوناً اخلاقياً ذاتياً أو عاما أي فكري مجرد أو قوانين اخلاقية عامة غير مطبقة على ارض الواقع بل في الحقيقة انّ هناك سلوك الدولة وأفعالها الواقعية وحينما تحدث السياسة أي سياسة الدولة ظلما وعدوانا بحيث يبدو انّها تتعارض مع ألاخلاق فإن هيغل يرى أنها طريقة، سطحية وضحلة في تصور الأخلاق (١٠٩).

إنَّ التبريرات الهيغلية للحرب، والمنفعة التي تتصف بها الدولة بعلاقاتها مع الدول الأخرى، واستغلال ضعف الدول المقابلة في شن حرب عليها في سبيل تحقيق منافع جديدة ، يبدو فيها شيء من

الإسفاف، ودعوة الى الحرب غير مبررة رغم واقعيتها فليس هناك شيء أنبل، واحسن من الإنسان، وحياته وكيف تكون دولة بدون إنسان بدون مواطنين؟ الحرب قد تؤدي الى هلاك كامل للنوع الإنساني فاذا ماقامت الدولة في حرب معينة قد تهدم أحد أهم مقومات وجودها وهو الإنسان، ونحن نعرف إنَّ الأسباب التي جعلت هيغل يقدس الدولة ويجعلها في هذا المكان الميتافيزيقي العالي ويقدس مركزية الدولة ويجعل لها رأس واحد وهو الملك أو الأمير إنّها الظروف الموضوعية، الواقعية التي كان يعيشها في بلاده انها المانياالممزقة التي لايربطها رابط. المانيا التي تطمع فيا كل امبراطورية جديدة تريد أن تستعمرها بسبب واقعها، وبالتالي فان هيغل رأي في بروسيا كدولة، وإمبراطورها كملك الأمل في توحيد المانيا، وجعلها دولة مركزية قوية بالحديد والنار ، وقد اتبع بسمارك فيما بعد رؤية هيغل في بناء دولة مركزية، ووحد الولايات الألمانية بالحديد والنار، وبسبب جذور هذا الفكر ، ورؤيته في السياسة الخارجية، ورؤيتها للحرب، وفائدتها للدولة خاضت المانيا حربين عالميتين مدمرتين، ويبدو أنّ رؤيته للحرب، وتقديس الدولة، وتقديس رمز الدولة قد انتج القومية المتطرفة (النازية)التي عانت منها البشرية فكراً وممارسة إنّ القومية المتطرفة التي بدا صداها يتردد في أصقاع الأرض، وبدات الكثير من الأحزاب، والمؤسسات، وأنظمة الدول تستوحي أفكارها حتى في بلداننا العربية حيث بدا هذا الفكر يطغى على الساحة العربية منذ منتصف القرن الماضي، ومازالت الأمة تعاني مما أحدثه هذا الفكر من مآسي إنسانية، وأنظمة استبدادية أهانت الإنسان وطمست حريته، وهددت كرامته ، إنّ الفكر الهيغلي هو أحد الأسس الرئيسية لهذا الفكر المتطرف الذي أنتج أنظمة مستبدة ،الذي أراد أنْ يبني دولة ويسحق الإنسان الدولة تصبح آلة كبيرة رهيبة تسحق كل من يقف أمامها .

إنّ العلاقات بين الدول لاتحكمها الكليّة(التي هي قانون العقل) بل يحكمها الاتفاق، والعرضية، ويحكمها الجانب الذاتي، أو الهوى. إنّ هذه العلاقات تتغير، وتتبدل باستمرار، والمعاهدات حتى لو كانت توحي بالالتزام والارتباط الدائم فانها تعتبر عتيقة، وسهلة حينما تتغير الظروف التي ادى اليها الالتزام بهذه المعاهدات إنّ هذا الالتزام ليس قانونياً، وليس هناك قوة أقوى من الدولة تلزم الدولة بالمعاهدة: إنّ الالتزام هو التزام أخلاقي أدبي لقد أراد كانت أنْ تكون هناك عصبة للامم تقوم بحل النزاعات بين الدول، أو المشاكل التي تحدث تكون هذه العصبة هي الحكم وأرادها أنْ تكون سلطة معترف بها من كل الدول وأنْ تكون هي الفيصل في كل النزاعات.

ولكن هيغل يرى أنّه ليس هناك سلطة عليا تكون من القوة بحيث تفرض رأيها وتفصل بين الدول المتحاربة، وتحل المشاكل قبل أنْ تشن الحرب قد يكون في أحسن ألاحوال هناك وسيط أو حكم والوسيط ليس سلطة على هذه الدول انما عمله يتوقف على ارادة الدول المتحاربة، إنّ هيغل ينطلق من موقف رفض السلام الدائم وحتمية الحرب من سببين:

الأول : يتعلق بمفهومه عن الدولة، وعلاقاتها مع الدول الأخرى وقد أوضحنا ذلك.

والثاني: وهو الواقع المعاش فقد عاش هيغل عصراً عاصفاً من الحروب الداخلية والخارجية ورغم وجود الأحلاف كالحلف المقدس، ووجود الاتفاقيات بين البلدان، ودعوات السلام من الفلاسفة، والمصلحين، ورجال الدين إلاّ أنّ الحرب تشن والاتفاقيات تخرق، والاحلاف لاتستطيع أنْ تمنع الحروب، وتصم الاذان لدعوات المصلحين، والفلاسفة، ورجال الدين، ونقصد بها دعوات السلام، وهذا هو الواقع حروب مستمرة.

يصنف هيغل الحروب بين الدول على نوعين فهناك حروب تكون انتهاكا محددا للمعاهدات ،وهناك حروب تكون عدوانا على شرف، وسلامة دولة ما، وذلك امر يبقى غير محدد في ذاته ذلك؛ لأنّ دولة ما يمكن أنْ تضع شرفها، وقيمتها اللانهائية في كل المسائل التي تتعلق بها وتبعا لذلك تتخذ موقفا متصلبا (١١٠) ومعنى ذلك ان الحروب قد تشن حينما تشعر دولة ما أنّ الدولة الأخرى التي ترتبط معها باتفاقات قد بدات تخرق بعض بنود هذه المعاهدة بحيث تشعر الدولة المقابلة بالخطر على مصالحها، أو تشعرها بأنّ هناك خطراً يهدد وجودها وبالتالي فان بقاء هذه الدولة بمواجهة الدولة الأخرى بقوة عن طريق الحرب حتى تشعر الدولة الأخرى بأنّها قوية، وقادرة على حماية مصالحها، وحتى لاتسمح لها بالعدوان عليها وهناك حرب أخرى تستشعر دولة بالاهانة من دولة أخرى مثلا حينما تحاول دولة ضم بعض الأقاليم، والأراضي لدولة مجاورة أو حينما تتحالف مع دولة عدوة لها أو تتصرف سياسيا ضد دولة أخرى أو تتدخل في شؤونها الداخلية فهذا يعتبر حسب هيغل عدواناً على شرف الدولة، أو الأمة وعلى سلامة الدولة وشعور الإهانة هذا يبقى رهناً بتقدير الدولة، وتقدير حكومتها فإذا كانت الدولة قد مرت بفترة طويلة من السلام الداخلي تشعر الدولة بأنّها بحاجة الى حرب حتى تظهر قوتها خارج حدودها ولتعيد نشاطها ولتقوّي هيبتها وكما مّر بنا سابقا فإنّ الحرب كما يقول هيغل تحافظ على الصحة الأخلاقية للشعوب، وخاصة إذا كانت هذه الشعوب بفترة سلام طويلة فلابد إذاً من الحرب حتى تعيد الدولة، وشعب الدولة نشاطه فلا يمكن أنْ يستمر السلام الدائم؛ لأنّه يفكك الدولة، ولابد من خلق سبب ما لقيام الحرب، وقد يكون السبب تافها، ويمكن تلافيه، ولكننا نجد الدولة تتخذ موقفا متصلبا؛ لأنّها هي تريد الحرب (١١١).

الحرب الاخلاقية أو تلميع صورة الحرب

إنّ شكل الحرب بين الدول الذي يريده هيغل ليس حربا عشوائية مدمرة كحرب الإنسان المتوحش، أي: إنّها ليست صراع وجود بل إنّ هناك قوانينا ليست ظاهرة (باطنية) يلتزم بها المتحاربون من الدول وأول تلك القوانين هو إنّ الدول المتحاربة تبقى على اعترافها بعضها ببعضها الآخر رغم الحرب (١١٢) والحقيقة إنّ الرأي الهيغلي في هذه الحرب هو أنّ الدول لاتكف عن الاعتراف ببعضها رغم الحرب فيه جانب من الصواب، ولكنه ليس صحيحا صّحة مطلقة فاستعراض بسيط لتاريخ

الحروب التي حدثت بين الدول في العالم على مر التاريخ نجد ان هناك حروباً قد قامت بين دولٍ معينة كصراع على نفوذ، أو على مستعمرات، أو بسبب ضم دولة لبعض راضي الدولة الأخرى، وليس كل الدولة، أو بسبب صراع على مياه إقليمية مثلا، أو لاسباب دينية، أو لتدخلات بالشؤون الداخلية ولكن كثير من الحروب قامت لإنهاء دولة، أو لضمها الى الدولة التي شنت الحرب فكيف تكون مثل هذه الحروب قائمة والدولة المحتلة قد احتلت من قبل الدولة الاخرى واصبحت اقليما من اقاليمها. أقول كيف تبقى هذه الدولة على اعترافها بالدولة التي احتلتها؟ ومن قوانين الحرب الهيغلية أيضا: أنّه يجب ألا تكون هناك حرب شاملة بحيث تنتهي بالقضاء تماماً على أحد طرفي الحرب يقول هيغل: "أنّ الحرب تحتوي على هذه القاعدة من قواعد القانون العام التي تفضي بأنّ فيها يحافظ على إمكانية السلام" (١١٣) أقول كيف يمكن أنْ تتحكم بالحرب ؟ يمكن للملك، أو الحكومة أنْ تتحكم بقرار بدء الحرب متى واين ومع مَنْ؟ ولكن الحرب حينما تبدأ لايمكن التحكم بها، وبتبعاتها، لايمكن التحكم بمصيرها وباداتها واساليبها وشراستها ، في الحرب ليس هناك قانون، أو قيم انه صراع بقاء، أو صراع وجود (١١٤) وحسب هيغل أنّه حتى تكون هناك امكانية للسلام موجودة يجب احترام بعض القوانين مثل احترام السفراء، وعدم قصف المدنيين، أو قتلهم؛ لأنّهم غير مشتركين في القتال يجب عدم هدم المؤسسات الحكومية المدنية ، نقول مرة اخرى :إنّ هذه القواعد، والسلوكيات الأخلاقية التي يرى هيغل أنّه يجب أنْ تراعى سوف لاتراعى، ولم تراع في أغلب الحروب، وحتى الحديثة منها التي وصل فيها الإنسان الى مستوى من الوعي والإحساس بالإنسانية والقانون ورغم وجود مؤسسات ومنظمات حقوقية عالمية ورغم وجود إعلام عالمي يسلطّ الضوء على المجازر التي ترتكب ضد المدنيين. أقول رغم ذلك فهذه الانتهاكات موجودة، ومستمرة، وبصورة بشعة جداً فالغازات السامة وتسميم المياه وقصف المدنيين وبيوتهم ومزارعهم قد حدثت في معظم الحروب الحديثة رغم وجود هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن ومحكمة جرائم الحرب. أقول إنّ هذه المجازر قد حدثت وسوف تحدث؛ لأنّ الحرب لاعقلانية الحرب تعبر عن همجية وعدم وعي تعبر عن أخلاق متدنية الحرب ليس لها هدف نبيل بل تعبر عن بشاعة من يتخذ القرار بشنّها، تعبر عن لاإنسانيته تعبر عن موت الضمير الإنساني الحرب بشعة في كل الأحوال وفي كل الأوقات.

الهوامش

١. المحمدي ، د سيد علي : فلسفة كانت السياسية ، ترجمة عبد الرحمن العلوي ،ط١ ، دار الهادي ، بيروت / ٢٠٠٧ ص٤٥.

٢. سباين ، جورج : تاريخ الفكر السياسي الكتاب الأول ، ترجمة علي ابراهيم السيد ، مراجعة وتقديم الدكتور راشد البرأوي ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ،٢٠١٠ ، ص١٩٥ .

٣. هيغل : محاضرات في فلسفة التاريخ (العالم الشرقي) ، ترجمة وتقديم وتعليق الدكتور إمام عبد الفتاح امام ، ط٣، دار التنوير ، بيروت / ص٢٥-ص٢٧ .

٤. د. سليمان ، عامر : الجيش والسلاح في العصر الآشوري موسوعة الجيش والسلاح ،ج١ ، بغداد ١٩٨٨ ، ص٢٣٧-٢٣٩ .

٥. خلف عبد الله ، يوسف : الجيش والسلاح في العهد الاشوري الحديث ، ط١ ، بغداد ، سنة ١٩٧٧ ، ص١٢١-١٢٤ .

٦. محراث ، د. كاظم محمد : دراسات في الادب العربي القديم ، ط١ ، دار الضياء ، النجف الاشرف ، سنة ٢٠٠٧ ،ص١٥٩-١٦٠ .

٧. اندرو ، روبرت برن : تاريخ اليونان ، ترجمة محمد توفيق حسن ، مطبعة وزارة التعليم العالي ، بغداد ، سنة ١٩٨٩ ، ص٣٠٦-٣٢٥ .

٨. المصدر نفسه ، ص٣٣٢ .

٩. المصدر نفسه ، ص١٣٥ .

١٠. هيغل : محاضرات في فلسفة التاريخ (العقل في التاريخ) ، ترجمة وتقديم وتعليق د. إمام عبد الفتاح امام ، ط٣، دار التنوير ، ٢٠٠٧ ، ص٩١ .

١١. الاهواني ، د.احمد فؤاد : فجر الفلسفة اليونانية ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، شذرة (٥٩) ، ص٢١٩ ، كذلك الدليمي د. حامد ، (هيرقليطس وهيغل) من الاصل الى التأويل ، دراسة مقاربة ، بحث منشور في مجلة لارك ، مجلة فصلية للفلسفة والعلوم الإنسانية ، صادرة عن كلية الاداب ، جامعة واسط ، العدد الخامس ، ص١٠.

١٢. الدليمي ، د.حامد : المصدر السابق ،ص٨ .

١٣. زكريا ، د. فؤاد : دراسات في فكر افلاطون ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص٦٨-٧٠ .

١٤. اندرو ، روبرت برن : تاريخ اليونان ، ص٣٩٥ -٣٩٦ .

١٥. إمام ، عبد الفتاح امام : الفلسفة السياسية عند هيغل ، ط٣ ، دار التنوير ، بيروت ،٢٠٠٧ ،ص٨٠ .

١٦. باقر ، طه : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، (الوجيز في تاريخ حاضرة وادي الرافدين) دار الوراق للنشر ، بيروت ، ٢٠٠٩ ، ص٦٠٤- ٦٠٥ .

١٧. المطران انطوان ، عميد موراني : هيغل (كتابات الشباب) دار الطليعة ، بيروت ، ٢٠٠٣ ،ص٩٤ .

١٨. القران الكريم ((سورة الانعام)) الاية ٨٢ .

١٩. تاجرالبندقية ، ويليم شكسبير على سبيل المثال (شخصية شايلوك) .

٢٠. هيغل : محاضرات في فلسفة التاريخ ، العالم الشرقي ، ص١٠٥ .

٢١. إمام عبد الفتاح امام ، الفلسفة السياسية عند هيغل ، ص٨٦ .

٢٢. المطران انطوان ، عميد موراني ، هيغل كتابات الشباب ، ص١٢٦ .

٢٣. امام عبد الفتاح امام : الفلسفة السياسية عند هيغل ، ص٨١ .

٢٤. المصدر نفسه ، نفس الصفحة .

٢٥. القران الكريم ، سورة الانفال ، اية (٣٩)

٢٦. القران الكريم ، سورة التوبة ، اية (٣٦)

٢٧. القران الكريم ، سورة الصف ، اية (٤)

٢٨. القران الكريم ، سورة البقرة ، اية (٢٠٨)

٢٩. القران الكريم ، سورة الانفال ، اية (٦)

٣٠. كرم ، يوسف : تاريخ الفلسفة اليونانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص٢٥ .

٣١. امام عبد الفتاح امام : الفلسفة السياسية عند هيغل ، ص٨٢ .
٣٢. المصدر نفسه ، ص٧٦ .
٣٣. المصدر نفسه ، نفس الصفحة .
٣٤. المصدر نفسه ، ص٧٧ .
٣٥. كانت ايمانؤيل : مشروع للسلام الدائم ، ترجمة الدكتور عثمان امين ، صادر عن دار المدى للثقافة والنشر ، بغداد ٢٠٠٧ ، ص٤٧ .
٣٦. المحمدي ، سيد محمد علي : الفلسفة السياسية عند كانت ، ص ١٦٥ .
٣٧. المصدر نفسه ، ص١٦٤ .
٣٨. المصدر نفسه ، ص١٦٠
٣٩. المصدر نفسه ، ص١٦٧ .
٤٠. المصدر نفسه ، ص١٦٨ .
٤١. المصدر نفسه ، ص١٧١ .
٤٢. ايما نؤيل ، كانت : مشروع للسلام الدائم ، ص٢١ .
٤٣. المصدر نفسه ، ص٥٨ .
٤٤. المصدر نفسه ، ص٢١ .
٤٥. كانت ، امانؤيل : نقد ملكة الحكم ، ترجمة سعيد الغانمي ، منشورات الجمل ، بيروت ، ٢٠٠٩ ، ص٥٩ .
٤٦. ابراهيم ، زكريا : كانت والفلسفة النقدية ، دار مصر للطباعة ، القاهرة ، ص٤٦
٤٧. كانت ، ايمانؤيل : مشروع للسلام الدائم ، ص٦٢ .
٤٨. كانت ، امانؤيل ، تأسيس ميتافيزيقيا الاخلاق ، ترجمة وتقديم ، د.عبد الغفار مكأوي ، منشورات الجمل ، ٢٠٠٢ ، ص١٦٥ .
٤٩. المحمدي ، محمد علي : فلسفة كانت السياسية ، ص٤٤٢ .
٥٠. كانت ، ايمانؤيل : مشروع للسلام الدائم ، ص٢٩-٣٠ .
٥١. المصدر نفسه ، ص٢٨ .
٥٢. المصدر نفسه ، ص٢٠ .
٥٣. امام ، عبد الفتاح امام : الفلسفة السياسية عند هيغل ، ص٨٧ .
٥٤. امام عبدالفتاح امام : المنهج الجدلي عند هيغل ، ط٣ ، دار التنوير ، بيروت ، سنة ٢٠٠٧ ، ص١٧١ .

٥٥. هيغل : مبادئ فلسفة الحق ، ترجمة تيسير شيخ الارض ، منشورات دار الثقافة ،بيروت ، ١٩٧٤ ، فق ٣٤٣ .
٥٦. امام ، عبد الفتاح امام : الفلسفة السياسية عند هيغل ، ص١١٥ .
٥٧. المصدر نفسه ، ص١١٧ .
٥٨. هيغل : محاضرات في فلسفة الفن (المدخل الى علم الجمال – فكرة الجمال) ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة ، بيروت ، ص٢٥٦ .
٥٩. المصدر نفسه ، ص٣٠٠ .
٦٠. المصدر نفسه ، ص٣١٧ .
٦١. المصدر نفسه ، ص٣٢٠ .
٦٢. امام ، عبد الفتاح : الفلسفة السياسية عند هيغل ، ص١٠٧ .
٦٣. المصدر نفسه ، ص١١٨ .
٦٤. بدوي ، عبد الرحمن : فلسفة القانون والسياسة عند هيغل: الطبعة الأولى ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٩٦ ، ص١٧٩ .
٦٥. هيغل : مبادئ فلسفة الحق ، فق ٣٤٣ .
٦٦. المصدر نفسه ، فق٣٢٤ .
٦٧. المصدر نفسه ، فق٣١١ .
٦٨. المصدر نفسه ، نفس الفقرة .
٦٩. المصدر نفسه ، ٢٨٠ .
٧٠. هيغل : محاضرات في فلسفة الفن (فكرة الجمال) ص٣٠١ .
٧١. بدوي ، عبد الرحمن : فلسفة القانون والسياسة عند هيغل ،ص٢٢١ .
٧٢. المصدر نفسه ، ص٢٢٣ .
٧٣. المصدر نفسه ، ص٢٢٢ .
٧٤. امام ، عبد الفتاح امام : الفلسفة السياسية عند هيغل ، ص١٠٣-١٠٤ .
٧٥. هيغل : مبادئ فلسفة الحق ، فق٣٤٢ .
٧٦. المصدر نفسه ، نفس الفقرة .
٧٧. انوود ، ميخائيل : معجم مصطلحات هيغل ، ترجمة امام عبد الفتاح امام ، المشروع القومي للترجمة ، مصر ، ص٥٦٨ .
٧٨. المصدر نفسه ، ص٥٨٧ .

٧٩. هيغل : اصول فلسفة الحق ، ترجمة وتقديم وتعليق ، امام عبد الفتاح امام ، ط٣ ، دار التنوير ، بيروت ، ٢٠٠٧ ، ص٥٩٧ .

٨٠. ميكافلي ، نيقولا : الأمير ، ترجمة محمد لطفي جمعة ،ص٦٧ .

٨١. المصدر نفسه ، ص١٧٦ .

٨٢. بدوي ، عبد الرحمن ، فلسفة القانون والسياسة عند هيغل ، ص٢١٤ .

83. HEGEL:G.W.F. LE PHENOMENOLOGIE DE LESPRIT / TOM II TRADUIT PAR JEAN IT 4 PPOLITE/EDITIONS AUBIER/PANES (94)P.23.

84. Ibid . 24

٨٥. انوود ، ميخائيل : معجم مصطلحات هيغل ، ص٥٨٧ .

٨٦. بدوي ، عبد الرحمن : فلسفة القانون والسياسة عند هيغل ، ص٢١٤ -٢١٥ .

٨٧. وايس ، لينوهارد : الدولة والدين عند هيغل ، ترجمة قاسم جبر ، مراجة وتقديم د. ميثم محمد يسر ، كتاب تحت الطبع ، ص٨٧ .

٨٨. ستيس ، ولتر : فلسفة هيغل (فلسفة الروح) ترجمة وتعليق ، امام عبد الفتاح امام ، دار التنوير ، بيروت ، ٢٠٠٦ ، ص٢١٢ .

٨٩. وايس ، لينو هارد : الدولة والدين عند هيغل ، ص٨١ .

٩٠. يسر ، ميثم محمد : الدين والدولة عند هيغل / اطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة بغداد ، كلية الاداب ، ٢٠١١ ،ص٢١٠ -٢١٢ .

٩١. هيغل : مبادئ فلسفة الحق ، فق١٠٨ .

٩٢. المصدر نفسه ، فق٢٧٥ .

٩٣. المصدر نفسه ، فق٣٢٩ .

٩٤. ميكافلي ، نيقولا : الأمير ، ص١٤٨ .

٩٥. سباين ، جورج : تطور الفكر السياسي (الكتاب الرابع) ترجمة علي ابراهيم السيد ، مراجعة وتقديم الدكتور راشد البراوي ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ٢٠١٠ ، ص١٢٥ .

٩٦. المصدر نفسه ، ص١٧٥ .

٩٧. وايلي ، اريك : هيغل والدولة ن ترجمة نخلة فريفر ، ط٣، دار التنوير بيروت ، ٢٠٠٧ ، ص١١٥ .

٩٨. سباين جورج : تطور الفكر السياسي ، الكتاب الرابع ، ص١٣٠.

٩٩. بدوي عبد الرحمن : فلسفة القانون والسياسة عند هيغل ، ص٢٢٩ .

١٠٠. كانت ، عمانؤيل : مشروع للسلام الدائم ، ص٢٧ .
١٠١. ستيس ، ولتر : فلسفة هيغل (فلسفة الروح) ص١٢١ .
١٠٢. امام ، عبد الفتاح امام : الفلسفة السياسية عند هيغل ، ص١١١ .
١٠٣. هيغل : مبادئ فلسفة الحق ، فق٣٣٢ .
١٠٤. المصدر نفسه ، نفس الفقرة .
١٠٥. المصدر نفسه ، فق٣٣٠ .
١٠٦. بدوي ، عبد الرحمن : القانون والسياسة عند هيغل ، ص٢٢٤ .
١٠٧. المصدر نفسه ، نفس الصفحة .
١٠٨. المحمدي ، محمد علي : فلسفة كانت السياسية ، ص٥٦٧ .
١٠٩. هيغل : مبادئ فلسفة الحق ، فق٣٣٧ .
١١٠. المصدر نفسه ، فق٣٣٤ .
١١١. بدوي ، عبد الرحمن : فلسفة القانون والسياسة عند هيغل ، ص٢٢٣ .
١١٢. هيغل : مبادئ فلسفة الحق ، فق٣٣٦ .
١١٣. بدوي ، عبد الرحمن : فلسفة القانون والسياسة عند هيغل ، ص٢٢٤ .
١١٤. المصدر نفسه ، ص٢٢٦ .